ظاهرة النص القرآني تاريخ ومعاصرة

رد على كتاب النص القرآني أمام إشكالية البنية والقراءة

للدكتور طيب تيزيني



سامر إسلامبولي

الكتاب : ظاهرة النص القرآني تاريخ ومعاصرة

المؤلف : سامر إسلامبولي

رسم الغلاف: سيرين سهيل الفاتح

مصر – القاهرة

موبايل: 00201141025253

s.islambouli@gmail.com

الفهرس

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾

(الحجر- 9)

المقدمة

إن من الغرابة على درجة كبيرة أن يأتي أحد ويناقش ما هو ثابت ومعلوم بالضرورة، بل بلغ صفة الحق من حيث الحكم عليه وجوداً أو صحة نحو أحقية وجود الخالق المدبر وأحقية وجود اليوم الآخر ووجود السماء والأرض.. إلخ، وقصدت بكلامي أحقية النص القرآني كمتن وحفظه من التحريف زيادة أو نقصاناً.

فالنص القرآني بدأ حقاً، واستمر بهذه الصفة إلى أن وصل إلينا حقيقة تاريخية كنص ثابت لم يتعرض للاختراق أبداً، وأي محاولة جرت للتلاعب فيه كانت تجهض ذاتياً لتفكك وهزالة المحاولة أمام عظمة النص القرآني، ومع ذلك يأتي باحث ليغوص في التراث ويتتبع الروايات التي وضعت بدافع إيديولوجي ويجمعها ليناقش على موجبها حقيقةً مشاهدةً في الزمن المعاصر ويحاول على أقل احتمال التشكيك بهذه الحقيقة، فمثله كمثل من يريد أن يناقش مسألة دوران الأرض حول الشمس من خلال الموروث البشري وذهب يجمع المقولات والنصوص لكبار الرجال في التاريخ بجانب الإشكاليات التي جرت حول هذه المسألة ووصل من جراء ذلك إلى أن مسألة دوران الأرض حول الشمس أمر مشكوك فيه أو على الأقل يجب إعادة النظر بهذه المسألة والتأكد منها، ولا يمكن ذلك إلا بمعالجة النصوص التاريخية والأحداث التي جرت وحل الإشكال الحاصل حينئذ، وهذا أمر

محال لأن ذلك مغالطة كبيرة فالأرض والشمس واقع مشاهد، والتأكد من صحة النظرية أمر متاح الآن لا علاقة لها بالنصوص والأحداث التي جرت وعدالة الرواة وغير ذلك فهذا أمر مستحيل حل إشكالياته بأية وسيلة، فكل حل وتوفيق قابل لأن يرفض من جهة ويقبل من أخرى وبالتالي فالأمر لا يمكن حسمه ويصبح الأمر موقفاً شخصياً وليس حقيقة علمية تلزم الجميع بالتسليم والإقرار بها.

والنص القرآني هو من هذا القبيل فهو موجود بين أظهرنا قابل للدراسة والتأكد من صحة مضمونه على صعيد الآفاق والأنفس من خلال مراكز ومؤسسات علمية على كافة الاختصاصات، فإذا ثبت أن مضمونه خطأ ومناقض لمحل الخطاب من الآفاق والأنفس يكون نصاً قد تم تحريفه والتلاعب به قطعاً رغم أنف الجميع ولو ألَّف المؤمنون بصحته آلاف المجلدات ونقلوا الإجماع على ذلك والتواتر له، لأن النص الرباني لا يمكن أن يتناقض مع محل خطابه ولا بأي شكل، أما إذا ثبت أنه نص منسجم كل الانسجام مع سيرورة وصيرورة الآفاق والأنفس بحيث أصبح النص القرآني المتلو هو صورة لغوية طبق الأصل للصورة الموضوعية فلا شك أن هذا النص رباني وهو صحيح لم يتعرض لأي تحريف أو تلاعب ولو جرت في التاريخ محاولات لذلك وتم نقل روايات عن زيد وعمرو بما يفيد أن النص قد تحرف، فالأمر تجاوز موضوع السند والإسناد وعدالة الرواة والإشكاليات التي رافقت استمرار النص القرآني لأن كل هذه الترهات

كانت تسقط في زمانها أمام نور النص القرآني لأن النص القرآني أشبه بالشمس وهي ساطعة في كبد السماء تحرق بشعاعها كل من ينكر وجودها أو يشكك فيه وهو يتعرض لضوئها وحرارتها، فَمَنْ من الناس يسمع لمدعي هذا الادعاء مهما أتى بالمقولات والروايات والإشكاليات وحشد شهادات للخصوم وغير ذلك. فالحقيقة أقوى من الجميع لأنها مشاهدة ومن ينكر عالم الشهادة وهو يراه لايعتد بقوله ولايسمعه أحد كائناً من كان، فالنص القرآني تواتر في المجتمع الأول الذي نزل فيه النص، وبدأ التواتر يتصاعد ويتنامى مع مرور الزمن وتتسع دائرته إلى أن تجاوز المجتمع العربي وبدأ يتواتر في المجتمعات الإسلامية غير العربية، وبهذا الأمر أصبح النص القرآني متواتراً إنسانياً، وهذا لا يعني انتفاء وجود إشكاليات رافقت تواتر النص في الزمن الأول وذلك بسبب الصراع بين الحق والباطل، فالتواتر غير الإجماع وبالتالي لايشترط في تواتر الخبر أن يسلم به الجميع فممكن- لظروف وملابسات معينة - أن يطعن أفراد من الناس بصحة هذا الخبر، وهذا الطعن من أفراد من الناس لايؤثر بتواتر الخبر وصحته ولايشكك به إطلاقاً ولايعتد بقولهم ومن يأخذ بقولهم مقابل التواتر لا يُعَدُّ موقفه موقفاً علمياً إطلاقاً.

ومسألة تواتر النص القرآني مسألة متواترة في الأمة الإسلامية ليست هي محل نقاش أو دراسة، فالنص القرآني واحد في مشارق الأرض ومغاربها واليقين لايزول إلا بيقين مثله، أما الظن فلا يعتد به أمام اليقين أبداً.

لننظر على سبيل المثال قول الباحث موريس بوكاي في كتابه (دراسة الكتب المقدسة) دار رشا، بيروت الصفحة (10): [فالقرآن هو الوحي الذي أنزل على محمد عن طريق جبريل، وقد كُتب فور نزوله ويحفظه ويستظهره المؤمنون عند الصلاة وخاصة في شهر رمضان وقد رتب في سور بأمر من محمد نفسه، وجمعت هذه السور فور موت النبي وفي خلافة عثمان ذلك لتصبح النص الذي نعرفه اليوم].

وقال في صفحة (13): [وبفضل الدراسة الواعية للنص العربي استطعت أن أحقق قائمة أدركت بعد الانتهاء منها أن القرآن لا يحتوي على أية مقولة قابلة للنقد من وجهة نظر العلم في العصر الحديث].

وقال في صفحة (145): [وعلى حين نجد في التوراة أخطاء علمية ضخمة لا نكتشف في القرآن أي خطأ، وقد دفعني ذلك لأن أتساءل: لو كان كاتب القرآن إنساناً، كيف استطاع في القرن السابع من العصر المسيحي أن يكتب ما اتضح أنه يتفق اليوم مع المعارف العلمية الحديثة؟! ليس هناك أي مجال للشك، فنص القرآن الذي نملك اليوم هو فعلاً نفس النص الأول].

وقال في صفحة (151): [صحة القرآن التي لا تقبل الجدل تعطي النص مكانة خاصة بين كتب التنزيل ولا يشترك مع نص القرآن في هذه الصحة لا العهد القديم ولا العهد الجديد].

وقال في الصفحة نفسها: [لم يتعرض النص القرآني لأي تحريف من

يوم أن أنزل على الرسول حتى يومنا هذا].

وماذكرته من أقوال إنما هي مَثَلٌ على طريقة البحث الموضوعي وكيف يصل الباحث إلى الحقيقة فهو لم يجر وراء السند والإسناد والإشكاليات إنما تعامل مع النص بشكل مباشر وحكم عليه من جراء الدراسة العلمية له.

بينما نلاحظ بعض الباحثين يتناول دراسة النص القرآني من خلال السند والرواة والأحداث والإشكاليات في الموروث الثقافي، أي بمعنى آخر درس كل ما يحيط النص من إشكاليات وأغفل دراسة النص نفسه الذي هو محل الدراسة، وأغمض عينيه عن مسألة تواتر النص القرآني، وتتبع الإشكاليات وأقامها وجهاً لوجه أمام الحقيقة وخرج بنتيجة أن النص القرآني طبخة عثمانية والنص الذي بين أيدينا ليس هو نفسه كما نزل على محمد .

لننظر إلى هذا النص(1): [ومن الملاحظ أن تلك الظروف التي أحاطت بعملية جمع القرآن في مصحف واحد وتحريق ما تبقى من المصاحف، كانت تشير إلى أن عثمان ربما كان يهدف من وراء ذلك تحقيق أمرين اثنين متضايفين. الأول منهما تمثل في الحفاظ على الوحدة الدينية

---

(1) د. طيب تيزيني. النص القرآني أمام إشكالية البنية والقراءة. ص402. دار الينابيع.

(الإيديولوجية) للمسلمين في الدولة الفتية المتعاظمة، حتى لو تم ذلك على أساس نص قام على أنقاض نصوص انتهى بها الأمر إلى ""الطبخ""...].

ولننظر أيضاً إلى هذا النص[2]: [إذا أخذنا بما نقله إلينا بعض المحدثين والفقهاء مثل البخاري ومسلم والترمذي من أن حجم نص القرآن الحقيقي ليس هو هذا الذي نجده في (مصحف عثمان)، أفليس من المحتمل حينئذ أن نرجع أسباب ذلك الوجه الإشكالي إلى هذا الأمر؟ فالكثير من السور والآيات زيدت أو نقصت أو أبعدت، بحيث لم يعد صحيحاً- بالاعتبار الوثيقي التاريخي- أن يقال بأنه لم يطرأ على النص المعني أي تغيير وبأننا نملك الآن هذا النص في حجمه الأساسي تماماً].

ولننظر أيضاً إلى قوله[3]: [وسوف نتبين - في ضوء عودة مدقّقة لنصوص إسلامية مبكرة - أنه يبدو أن للمسألة وجهاً آخر أكثر دلالة وحساسية ولم ينتبه إليه ماسيه ولابيرك[4] وباحثون آخرون كثيرون، ويقوم على أن القرآن، وفق آراء جمع من الكتاب الإسلاميين، خضع أثناء جمعه- وبتأثير من المصالح السياسية المتصارعة خصوصاً للتكونات السياسية والإيديولوجية الإسلامية الناهضة - لعمليات أدت إلى اختراق متنه زيادة ونقصاناً].

بينما نحى بعض الباحثين منحى آخر فهم لم يتطرقوا إلى إشكاليات

---

(2) المصدر نفسه صفحة 253.

(3) المصدر نفسه، ص 65.

(4) لاحظ كيف سبق المستشرقين في التشكيك بصحة حفظ النص القرآني!!.

السند والرواة التي رافقت تواتر النص القرآني، وإنما تطرقوا إلى المفاهيم والأحكام التي استندت على النص القرآني وعلقت به وانتقلت على أساس أنها الحكم الشرعي الذي أنزله الله عز وجل ولم يفرقوا بين النص القرآني كنص رباني وفهم وتفاعل المسلمين الزمكاني مع هذا النص ونظروا إليهما نظرة اندماجية وكون الفهم السابق للنص ممكن أن يكون خطأ وغير مناسب للمجتمع اللاحق فطالبوا بإبعاد الدين عن الحياة الاجتماعية.

لننظر على سبيل المثال إلى هذا النص[5]: [فلماذا لانفصل الشريعة أو الدين عن قانون الأحوال الشخصية مثل غيرها من القوانين حفاظاً على سلامة الأسرة وحقوق النساء والأطفال] .

وعند دراسة أبعاد ودوافع هؤلاء الباحثين والظاهر من أبحاثهم نجد أن السبب هو واقع المسلمين الثقافي المتخلف والمتردي والموقف المتشنج من الحوار وعدم احترام الرأي الآخر ومحاولة اغتياله ورفض الاجتهاد والجديد وإضفاء- على الموروث الثقافي- صفة الحق المطلق وماسواه لاشك ببطلانه، غير الانحطاط والممارسة الاستبدادية من جميع مؤسسات المجتمع التي ينتج عنها الاستعباد للشعوب على كافة الأصعدة فكل ذلك وغيره دفع هؤلاء إلى التفكير في النهضة بالأمة والرقي بها فنظروا إلى ثقافة الأمة فرأوها ركاماً ضخماً جداً من الموروث الثقافي الديني والأساس لهذه الثقافة هو القرآن بالدرجة الأولى ومن منطلق أهل مكة أدرى بشعابها أي رجال

---

(5) د. نوال سعداوي. المرأة والدين والأخلاق . إصدار دار الفكر بدمشق.

الدين أقروا ما هو موجود في التراث وأعطوه صفة الحق والتمثيل للنص القرآني نفسه حتى نظرت الأمة إلى موروثها الثقافي الديني نظرتها إلى النص القرآني من حيث القداسة وبالتالي أي طعن أو نقد للموروث يعدُّ طعناً ونقداً للدين نفسه. فلم يجد هؤلاء الباحثون إلا عملية النقض للنص القرآني نفسه سواء بعرض الإشكاليات التي رافقت تواتره للوصول إلى أنه قد تم تحريفه أم المطالبة بإبعاده عن الحياة الاجتماعية فالنتيجة لكليهما واحدة وهي سحب صفة صلاحية النص القرآني وديمومته لكل زمان ومكان.

إذاً الأمر على درجة كبيرة من الخطورة والأهمية وأقل ما يقال في أمثال هؤلاء الباحثين أنهم وقعوا فريسة الغزو الثقافي العولمي وأنه تم اختراق طبقة المثقفين والمفكرين العرب.

فالنص القرآني ليس موروثاً ثقافياً – بمعنى أنه ليس من صنع أي مجتمع– تتوارثه المجتمعات اللاحقة عن المجتمعات السابقة، وإنما هو نص أصيل ووحي من الخالق المدبر للناس عبر الزمان والمكان وهذه مسألة إيمانية لها أصول في البحث غير تلك التي نحن بصددها، فنحن ننطلق من كون أن النص القرآني رباني المصدر وهذا محل اتفاق وتسليم بين المؤمنين به، وبما أن الأمر كذلك فالحوار هو حوار بين المؤمنين، أي حوار ثقافي داخلي في الأمة الواحدة.

لذا؛ يجب التمييز بين النص القرآني كمتن رباني وبين فهم وتفاعل المجتمعات معه حسب الزمكان والأدوات المعرفية التي يملكونها، فهذا التفاعل هو موروث ثقافي يتراكم خلال التاريخ ليس له أية صفة من

القداسة أو الإلزام به للمجتمع اللاحق.

ومن هذا الوجه نطالب – بإلحاح – بإعادة فرز الموروث الثقافي دون استثناء لأي مفهوم منه، والعمدة بذلك هو القرآن ومحل خطابه من الواقع – آفاق وأنفس – دون الخوف من مخالفة الموروث الثقافي أو مجتمع السلف.

وبهذا العمل الثقافي – سيرورة وصيرورة – نستطيع أن نحمي ثقافتنا العربية والإسلامية من الاختراق والغزو الثقافي نتيجة العولمة الزاحفة بواسطة التقنية الإلكترونية والتكنولوجية التي فرضت نفسها على معطيات الحياة الاجتماعية والاقتصادية.

فالأمر على درجة كبيرة من الخطورة، إنه صراع بين الثقافات والبقاء للأقوى والأقوى هو الأصلح والأنفع للناس ولو لم يظهر ذلك عاجلاً.

وقمت في بحثي هذا بعرض تاريخي مختصر لبحث جمع وتواتر النص القرآني واختلاف القراءات وحاولت أن أجيب عن أهم الإشكاليات المتعلقة بالموضوع مساهمة في إزالة الملابسات التي قد تخطر في ذهن المسلم فلا يعرف لها جواباً ويقف في حيرة منها أو يصل الشك إلى قلبه ولا يستطيع دفعه، وبعد ذلك انتقلت إلى دراسة مجموعة من المفاهيم التي قد تم استخدامها في التشكيك بصحة النص القرآني نحو: اللوح المحفوظ، المحكم والمتشابه، الظاهر والباطن، أزلية القرآن، الثابت والمتغير.. إلخ، وأعرضت عن مجموعة أخرى رغم ارتباطها ببحثنا حتى لا يتم تكرار ما هو مكتوب نحو: مفهوم السنة والحديث وعلاقتهما بالنص القرآني، وقاعدة (لا اجتهاد في مورد النص) وأن المصدر التشريعي النظري هو القرآن فقط لاغير، وغير ذلك فلقد أفردت لهم سابقاً بحثاً مستقلاً[6]، وكذلك مفهوم

([6]) كتابي: (تحرير العقل من النقل وقراءة نقدية لمجموعة من أحاديث البخاري ومسلم).

الإجماع والناسخ والمنسوخ[7]، فكل هذه المواضيع هي سلسلة مترابطة لا يمكن دراسة موضوع ثقافي متعلق بالنص القرآني إلا واستحضارها جميعاً والتطرق لها والقيام بفرزها واتخاذ موقف منها رفضاً أو قبولاً لأنه بناء على هذا الموقف يتم الحوار والدراسة والتواصل الثقافي بين الأمة، وهذا الموقف أصبح ضرورة ملحة في الزمن المعاصر مع الانتباه والحذر أن الموقفين كليهما لا علاقة لهما بمفهوم الإيمان والكفر أبداً، إنما هو اختلاف في وجهة النظر ضمن المجتمع الواحد الذي يجب عليه أن يكون قائماً على أساس التعايش الذي ينبثق منه مفهوم المواطنة والأمن والعدل والسلام والحرية بين فئات المجتمع على مختلف القوميات والوجهات، وأساس التماسك الذي ينبثق منه التعارف والتعاون والوحدة والمشاركة في بناء المجتمع الواحد، وأساس النهضة التي هي هدف مشترك بين فئات المجتمع للوصول للتقدم والرقي في المجتمع على الأصعدة كافة لتأسيس حضارة إنسانية.

---

(7) كتابي: (الآحاد، الإجماع، النسخ).

حفظ النص القرآني في مكة

إن النص القرآني بدأ نزوله في مكة التي كانت موطناً للعرب القائمة ثقافتهم على النظام النقلي من شعر وخطابة وهما اللذان كانا بمثابة وسيلة الإعلام التي يتم من خلالها ذكر المآثر والملاحم والمدح والذم والتغني ونقل الأخبار.. إلخ، حتى أنهم أقاموا في موسم الحج سوقاً عُرِف باسم سوق عكاظ يأتي إليه التجار من كل حدب وصوب ليعرضوا بضائعهم ويشتروا غيرها فيتم التبادل التجاري بينهم وكل ذلك في مكة التي كان حكمها حقيقة خاضع للتجار الكبار فيها وبالتالي فهم المستفيدون أولاً وآخراً من هذه التظاهرة التجارية وكان يتخلل هذه التظاهرة بث إعلامي يعتمد على وسيلة الشعر والخطب ومن خلالها يتم نشر الأخبار وذكر المناقب والأحداث ونشر الحكمة، وكون وسيلة الشعر والخطب هي الوحيدة للبث الإعلامي على صعيد القبيلة وعلى صعيد المجتمع العربي أصبح الشعر والخطب والروايات بمثابة الحافظة للذاكرة الشعبية للمجتمع العربي حينئذ وهذا أدى بدوره إلى نمو ذاكرة الحفظ عند معظم الأفراد إلى درجة كبيرة حتى أصبح معظمهم يحفظ مايدور حوله من روايات وأشعار من المرة الأولى.

إذاً النظام الثقافي السائد في مكة حين نزول النص القرآني كان نظاماً يعتمد على السماع والرواية وهذا يقتضي الحفظ والاعتناء بالأخبار والشعر

والخطب ومن جراء ذلك غلب على النظام المعرفي عند العرب نظام النقل وساد بين الناس وهم يتوارثونه جيلاً بعد جيل. وفي هذه البيئة الثقافية بدأ نزول النص القرآني بالسور ذات المقاطع الصغيرة، وكان الرسول فور انتهاء الوحي يقوم بتلاوة ما نزل عليه على مسامع الناس لدعوتهم وحوارهم بمفاهيم الدين الجديد، فيسمع الناس الحاضرون النص القرآني ويحفظونه مباشرة مثله مثل أي نص من الخطب أو الشعر ويتناقلونه فيما بينهم كخبر إعلامي هام إلى الآخرين الذين لم يسمعوه ناهيك عن تناوله من قبلهم جدالاً وحواراً كون مادة النص موجهة إلى تغيير بنية المجتمع وإعادة تشكيله من جديد أي أن النص كانت بنيته بنية ثقافية اجتماعية وسوف يتمخض عنه مشروع سياسي يقلب أمور المجتمع رأساً على عقب، والنص القرآني ليس كأي نص أدبي فهو نص حيوي مليء بالفعالية، كل ذلك أدى إلى رسوخ النص القرآني حفظاً في الصدور من قبل مجتمع مكة، وإضافة لذلك بدأ يدخل في الدين الإسلامي شباب ورجال ونساء من مختلف الطبقات الاجتماعية قاموا بالاعتناء بالنص القرآني حفظاً وتعليماً بعضهم لبعض مع وجود أفراد منهم كانوا يقومون بكتابة النصوص القرآنية لأنفسهم، واستمر نزول النص القرآني في مكة حوالي ثلاث عشرة سنة مع استمرار الجدال والحوار مع المجتمع بشكل يومي يتم فيه تكرار تلاوة النصوص كونها هي مادة النقاش والدعوة. وكان هذا الأمر هو أكبر حدث اجتماعي ثقافي طوال هذه المدة فأدى ذلك إلى أن يتواتر هذا الحدث يوماً بعد يوم وتكبر دائرته حتى تجاوزت مجتمع مكة إلى المجتمعات المجاورة وخاصة في موسم

الحج.

ذلك كله وغيره جعل النص القرآني معلوماً لدى المجتمع العربي وتواتر عندهم خبره ولم يعد مقبولاً في زمنهم أي طعن موجه لمادة النص القرآني من تحريف، وهذا يعني أن النص القرآني ابتداء كان متجاوزاً إمكانية الاختراق له متناً.

ومن الأمور التي زادت في ترسيخ النص القرآني حفظاً هو أن الله عز وجل جعل تلاوة النص بحد ذاته تعبداً فحض على ذلك، وهذا يقتضي من المؤمنين حفظه قطعاً وخاصة في مجتمع تغلب عليه أمية الكتابة وعدم تلاوة المخطوط، وإضافة لذلك جعل الشارع تلاوة النص مندوباً في الصلاة التي هي فرض عين خمس مرات يومياً مما يعني أنه لا يوجد فرد مسلم إلا ويحفظ شيئاً من النص القرآني مهما تضاءل هذا الحفظ، والصلاة قد شرعت مع بدايات نزول النص القرآني، إذاً ساهم في حفظ النص القرآني في الصدور مجموعة من الأمور الموضوعية وهي:

1 . قوة الذاكرة وحفظ أفراد المجتمع العربي حينئذ.

2 . أهمية الحدث وعظمته.

3 . الصراع المستمر بين الإيمان والكفر.

4. التحدي للخصوم بالإتيان بمثله بجانب الحكم عليهم سلفاً بالعجز.

5 – تسفيه عقائدهم وطريقة تفكير المجتمع الجاهلي.

6 – دخول جماعات من الناس في الدين الجديد فاعتنوا بالنص القرآني حفظاً وتعليماً وكتابة.

7 – جعل الشارع تلاوة النص عبادة وحض على ذلك.

8 – جعل الشارع تلاوة النص مندوباً في الصلاة اليومية.

9 – النص القرآني مصدر للفكر والدعوة فكان محلاً للدراسة والتدبر لايستغنى عنه ولا بأي شكل مما أدى إلى حضوره في عملية الجدال والحوار يقوده ويوجهه.

10 – وجود الرسول نفسه حامل الرسالة والذي يقوم بتلاوتها وإبلاغها للناس بشكل مستمر.

11 – نزول النص القرآني مفرقاً خلال مدة زمنية طويلة.

12 – ارتباط النص القرآني غالباً بالأحداث.

وبذلك صار النص القرآني الحديث اليومي لمجتمع مكة وهو أشهر من عَلَمٍ عند الناس جميعاً حتى الكفار منهم لو تجرد أحدهم من موقفه العنيد ضد الدعوة وطُلِبَ منه تلاوة ما نزل من النص القرآني لقام بفعل ذلك عن ظهر قلب دون أن يسقط منه حرفاً لأنه عاصر نزول النص وعاش أحداثه يوماً بعد يوم وسمعه عشرات المرات بل مئات من جراء اهتمام المجتمع به خلال ثلاث عشرة سنة، فكيف والمؤمنون يزدادون يوماً بعد يوم وكلهم معاصرون للرسول يسمعون منه مباشرة النص القرآني ويهتمون به حفظاً وتلاوة وكتابة؟!! وبذلك كان النص القرآني ابتداء من نزوله يدخل في دائرة التواتر له رواية وتلاوة ويتنامى ذلك ويتسع مع مرور الزمن ليعطي للنص القرآني مناعة ضد أي عملية اختراق له متناً.

توثيق النص القرآني كتابة
في العهد المدني

عندما هاجر النبي إلى المدينة بدأ عهد جديد في التعامل مع النص القرآني، ومرد ذلك راجع إلى أن الوضع في المدينة مختلف عن الوضع في مكة، إذ كان الوضع في مكة مجال عمله هو الدعوة والعمل لبناء مجتمع، أما في المدينة فلقد استجابت القاعدة الشعبية لهذا الدين الجديد فأصبح الوضع هو تمثيل المجتمع والمضي به قدماً نحو النهضة والرقي، وكون بنية المجتمع الثقافية قد تغيرت سوف يترتب على ذلك تغيير في كافة البنى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وهذا أدى بدوره إلى ميلاد الدولة الجديدة التي تمثل الكيان الاجتماعي الجديد كضرورة ثقافية اجتماعية، وبذلك أصبحت الدعوة من مهمة الدولة التي يرأسها النبي نفسه.

وبما أن النص القرآني مازال مستمراً في النزول فلقد أخذت الدولة على عاتقها حفظ النص القرآني وتوثيقه كتابة، فقام النبي بتكليف جماعة كبيرة ممن يتقنون الكتابة ليقوموا بكتابة النص القرآني فور نزوله واشتهر هؤلاء الكتبة باسم كتبة الوحي وكان منهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وأُبَي بن كعب وزيد بن ثابت وغيرهم كثير، وورد أنه قد بلغ عدد كتبة الوحي أربعين كاتباً[8].

ولم تنحصر كتابة النص على هؤلاء فلقد كان كثير من المسلمين ممن

([8]) راجع كتاب: رسم المصحف دراسة لغوية تاريخية ط الأولى. نشر اللجنة الوطنية في بغداد تأليف غانم قدوري الحمد.

يتقنون الكتابة يكتبون لأنفسهم نصوصاً من القرآن أو كل ماينزل من الوحي تباعاً لتكون عندهم نسخ خاصة بهم. لننظر إلى هذه الأحاديث التي تؤكد ما ذكرناه:

1- [لا تكتبوا القرآن إلا في شيء طاهر] مسند عمر بن عبد العزيز.

2- [لا تكتبوا عني ومن كتب عني غير القرآن فليمحه وحدثوا عني ولا حرج ومن كذب علي قال همام أحسبه قال متعمداً فليتبوأ مقعده من النار].صحيح مسلم.

3 - [لا يمس القرآن إلا طاهر] مالك في موطأ الإمام مالك .

4 -[لا تسافروا بالقرآن فإني أخاف أن يناله العدو] مسند أحمد.

فهذه النصوص تؤكد بشكل جلي أن هناك من الصحابة غير كتبة الوحي كانوا يكتبون لأنفسهم النص القرآني سواء بشكل جزئي أم كلي لمجموع النصوص التي تنزل تباعاً.

إذاً النص القرآني في العهد المدني كان ابتداء منذ نزوله يدخل في دائرة التواتر له رواية من جراء تلاوة الرسول له على ملأ من الناس ودائرة التوثيق له كتابة من جراء كتابته بحضرة النبي وذلك في نسخته الخاصة المحفوظة عنده في بيته إضافة لكتابته من قبل جماعة من الصحابة لأنفسهم. لننظر إلى هذا الحديث:

[كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مما يأتي عليه الزمان وهو تنزل عليه السور ذوات العدد فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان

يكتب فيقول ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا وإذا نزلت عليه الآية فيقول ضعوا هذه الآية في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا] الترمذي.

وواضح من الحديث أن الألواح أو الرقاع التي يكتب عليها النص القرآني تبقى عند النبي في بيته ولا يأخذ كتبة الوحي شيئاً منها إذ لو حصل ذلك لتعذر وضع السورة في المكان الذي يدل عليه الرسول بالنسبة لكاتب آخر لا يوجد عنده أصلاً السور التي يذكرها الرسول ويكون النص القرآني المكتوب على الألواح والرقاع قد تفرق على كتبة الوحي وكل واحد منهم يحتفظ بما كتب، وهذا الأمر يرفضه العقل وواقع الحال، والصواب أن كل نص قرآني يكتب على لوح أو رقاع يتم حفظه عند النبي نفسه حتى إذا نزل نص آخر ولم يكن كاتب الوحي السابق موجوداً يأتي أي كاتب آخر ممن هو موجود في تلك الساعة ليحل محله ويكتب النص القرآني الجديد ويضعه في مكانه من الألواح الموجودة عند الرسول في بيته، وقد دلَّ على ذلك الحديث التالي:

عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ قَالَ كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ نُؤَلِّفُ الْقُرْآنَ مِنَ الرِّقَاعِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ [طوبى للشام فقلنا لأي ذلك يا رسول الله قال لأن ملائكة الرحمن باسطة أجنحتها عليها] سنن الترمذي .

وقول زيد صريح في أن الرقاع المكتوب عليها النص القرآني موجودة عند الرسول نفسه في بيته وكان يتعهدها بالحفظ والجمع مع بعضها ضمن

طريقة معينة وخاصة الرقاع التي تحتوي على السورة الطويلة فلابد من ترتيبها حسب التسلسل لها ويكون ذلك بتأليف الرقاع المعنية مع بعضها دون غيرها وهكذا يتم تأليف كل سورة طويلة مع بعضها حتى لا تختلط الرقاع ويتم تداخل السور الطويلة مع بعضها، وزيادة في التوثيق للنص القرآني المخطوط كان الرسول عندما ينتهي من تلاوة النص وإملائه على الناسخ يأمره أن يعيد تلاوة المخطوط عليه والنبي يسمع وذلك لضبط وتصحيح النص إذا وقع من الكاتب أي خطأ أو سهو. لننظر إلى هذا الحديث:

[كنت أكتب الوحي عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان يشتد نفسه ويعرق عرقاً شديداً مثل الجمان ثم يسري عنه فأكتب وهو يملي علي فما أفرغ حتى يثقل فإذا فرغت قال اقرأ؟ فأقرؤه فإن كان فيه سقط أقامه] المعجم الكبير سليمان بن أحمد . [9].

واستمر توثيق النص القرآني حفظاً وكتابة إلى أن تم اكتمال نزول النص القرآني وتوفي الرسول بعد ذلك تاركاً وراءه النص القرآني مكتوباً بشكل كامل على الرقاع في بيته مع وجود عدة نسخ للنص القرآني مكتوبة بشكل كامل عند مجموعة من الصحابة، غير الكتابة المتفرقة للنص في مجموع مجتمع الصحابة. ولننظر إلى هذا الحديث الذي يدل على نسخة النص القرآني المكتوب في حضرة النبي إلى أين آلت بعد وفاة النبي.

---

(9) أدب الكتّاب الصولي، المطبعة السلفية القاهرة ص165 نقلاً عن كتاب رسم المصحف دراسة لغوية تاريخية لغانم قدوري الحمد ط(1) اللجنة الوطنية في بغداد.

[بعدما ارتحل النبي إلى الرفيق الأعلى جلس علي عليه السلام في بيته حتى جمع القرآن في مصحف على ترتيب النزول، ولم يمض ستة أشهر من وفاة الرسول إلا كان علي قد فرغ من عمل الجمع وحمله للناس على بعير][10].

ولننظر للحديث التالي الذي يدل على وجود نسخ مكتوبة كاملة للنص القرآني في زمن النبي غير نسخته المكتوبة بحضرته.

[مات النبي صلى الله عليه وسلم ولم يجمع القرآن غير أربعة أبو الدرداء ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبو زيد قال ونحن ورثناه] الجامع الصحيح المختصر. محمد بن إسماعيل.

وكلمة الجمع في الحديث لا يقصد بها الحفظ ضرورة وذلك لوجهين:

الأول: أن الجمع للنص القرآني حفظاً كان لعدد كبير جداً من الصحابة كما هو معروف وعلى رأسهم الخلفاء الأربعة وأُبَيّ بن كعب وعبد الله بن مسعود وغيرهم كثير جداً.

الثاني: قول أنس في آخر الحديث (ونحن ورثناه) وقطعاً الوراثة لاتكون للحفظ لاستحالة ذلك فضلاً عن انتشارها بين مئات من الصحابة ومن تبعهم مما يقتضي أن الوراثة كانت للنص القرآني المكتوب على الرقاع.

أما حصر عملية الجمع للنص القرآني كتابة في زمن النبي بأربعة فقط فإن هذا حسب علم واطلاع أنس بن مالك والأمر لايفيد الحصر لعدم

([10]) الإتقان للسيوطي، المصاحف لأبي داوود.

وجود عملية إحصاء في مجتمع الصحابة مما يعني احتمال وجود أكثر من أربع نسخ مكتوبة بشكل كامل للنص القرآني فمثلاً هناك نسخة النبوة التي آلت إلى علي بن أبي طالب بعد وفاة النبي ص.

إذاً؛ توفي النبي والنص القرآني بشكل كامل قد دخل في دائرة التواتر له حفظاً من مجتمع الصحابة ودائرة التوثيق له كتابة بشكل كامل في عدة نسخ غير وجوده مكتوباً بشكل متفرق في مجتمع الصحابة.

نقل النص القرآني
من الرقاع إلى الصحف في زمن أبي بكر

بعد أن توفي النبي واستلم بعده زمام أمور الحكم أبو بكر الصديق ارتدت كثير من القبائل العربية لأسباب لسنا في صدد دراستها قام أبو بكر بمحاربتها محاولاً إرجاعها إلى الولاء للدولة الجديدة وعرفت الحروب باسم حروب الردة وانخرط في هذه الحرب معظم الصحابة الأقوياء الأشداء ليمارسوا دورهم في حفظ هيبة الدين وسلطة الدولة ومن بينهم كان عدد ضخم جداً من حفظة القرآن وخلال المعارك استشهد منهم الكثير فتنبه لذلك عمر بن الخطاب واقترح على أبي بكر أن يقوم بجمع النصوص القرآنية في مصحف خشية ضياعه من أثر موت الحفظة وسرعان ما استجاب أبو بكر لذلك بعد أن تردد قليلاً وعلم أن الأمر فيه الخير للمسلمين، ولقد أورد البخاري القصة كاملة في صحيحه إذ قال:

أن زيد بن ثابت الأنصاري رضي الله تعالى عنه وكان ممن يكتب الوحي قال: [أرسل إلي أبو بكر مقتل أهل اليمامة وعنده عمر فقال أبو بكر إن عمر أتاني فقال إن القتل قد استحر يوم اليمامة بالناس وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء في المواطن فيذهب كثير من القرآن إلا أن تجمعوه وإني لأرى أن تجمع القرآن قال أبو بكر قلت لعمر كيف أفعل شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عمر هو والله خير فلم يزل عمر

يراجعني فيه حتى شرح الله لذلك صدري ورأيت الذي رأى عمر قال زيد بن ثابت وعمر عنده جالس لا يتكلم فقال أبو بكر إنك رجل شاب عاقل ولا نتهمك كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتتبع القرآن فاجمعه فو الله لو كلفني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علي مما أمرني به من جمع القرآن قلت كيف تفعلان شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أبو بكر هو والله خير فلم أزل أراجعه حتى شرح الله صدري للذي شرح الله له صدر أبي بكر وعمر فقمت فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع والأكتاف والعسب وصدور الرجال حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع خزيمة الأنصاري لم أجدهما مع أحد غيره { لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم } إلى آخرهما وكانت الصحف التي جمع فيها القرآن عند أبي بكر حتى توفاه الله ثم عند عمر حتى توفاه الله ثم عند حفصة بنت عمر] . الجامع الصحيح المختصر لـ محمد بن إسماعيل.

قبل شرح عملية جمع النص القرآني في مصحف في زمن أبي بكر لابد أن نذكر ما مرَّ معنا من جمع القرآن في زمن النبي.

فلقد ثبت لدينا أن النص القرآني في زمن النبي كان مكتوباً كله على الرقاع وموجوداً في مكان واحد إضافة لعدة نسخ كاملة موجودة عند بعض الصحابة وعلى رأسهم زيد بن ثابت كما في الحديث السابق [لم يجمع القرآن إلا أربع]. ولما توفي النبي انتقلت نسخة القرآن المكتوبة بإملائه إلى

علي بن أبي طالب بحكم القرابة إذ كان ابن عمه وزوج ابنته وهو من باشر أمور وفاته، وقد قام علي عليه السلام بترتيبها حسب تاريخ النزول وحملها على بعير وأظهرها للناس بعد بضعة أشهر من وفاة النبي ولم تتبنى الدولة حينئذ عمل علي عليه السلام وذلك لعدم شعورهم بالحاجة إلى هذه النسخة كون النص القرآني متواتراً بين الصحابة رواية وحفظاً فضلاً عن كتابته في عدة نسخ عند بعض الصحابة مع وجود المانع السياسي الذي نتج عنه تغييب علي عليه السلام من الظهور في الأمور المهمة حتى لا يتسلط عليه الضوء فاحتفظ علي عليه السلام بالنسخة عنده.

إذاً؛ يجب تقرير الأمر التالي أن أول من جمع النص القرآني كتابة هو النبي نفسه كما ذكر ذلك الحديث السابق [كنا نؤلف القرآن من الرقاع عند الرسول]، وحديث زيد بن ثابت إذ قال: [كنت أكتب الوحي عند رسول الله وهو يملي عَلَي، فإذا فرغت قال: اقرأه؟ فأقرؤه فإن كان فيه سقط أقامه].

وبناء على ما ذكرنا آنفاً نأتي لعملية جمع أبي بكر للنص القرآني في الصحف، فالملاحظ أن العملية هي تغيير في وسيلة الجمع للنص القرآني من الألواح والرقاع إلى وسيلة أخرى أسهل من الأولى في عملية نقلها وحفظها وهي الصحف، فأمر أبو بكر زيد بن ثابت بنقل النص القرآني إلى الصحف معتمداً على وسيلتين: الأولى المحفوظ بالصدور بشكل متواتر، الثانية: المكتوب على الرقاع، بحيث لا يثبت آية إلا إذا توافر فيها

شرطان التواتر الحفظي والتوثيق الكتابي، والوسيلتان كلتاهما متوفرتان في مجتمع الصحابة ويكفي أن نعلم أن زيداً هو أحد الحفظة ويملك نسخة مكتوبة للنص القرآني خاصة له ومع ذلك لم يعتمد على حفظه فقط ولا على نسخته كونها خاصة له وليس لها مصداقية بشكلها المنفرد وكل ذلك لدقة التوثيق للنص القرآني المكتوب فأخذ يجمع النص القرآني من الصدور بشكل سماعي ومن ماهو مكتوب ويقارنه بحفظه ونسخته ويثبت ذلك بعد التدقيق، وفي نهاية العمل حصل على نسخة موثقة ومصدقة من قبل مجتمع الصحابة وهي صورة طبق الأصل عن المحفوظ في الصدور بشكل متواتر والمكتوب على الرقاع أي أن مصحف أبي بكر حصل على أعلى درجة في التوثيق والتصديق إذ تحقق فيه التواتر له سماعاً والإجماع من قبل مجتمع الصحابة على صحة المكتوب وأنه وفق المحفوظ تواتراً.

أما ما جاء في الحديث أنه وجد آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة ولم يجدها مع أحد غيره فلقد قصد بذلك الكتابة لها وليس العلم بها وحفظها لأن ذلك متواتر بين الصحابة ومازال الكثير منهم على قيد الحياة نحو أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وزيد نفسه فكل هؤلاء من الحفظة وكتبة الوحي، فضلاً أن قوله: [لم أجدها مع أحد غيره] ليس دقيقاً من الناحية العلمية لأنها موجودة بنسخته الخاصة ونسخ الذين جمعوا القرآن كاملاً في حياة النبي ونسخة النبوة نفسها كون كل آية تنزل كانت تتم كتابتها فور نزولها فقطعاً هذه الآية موجودة في نسخة النبوة التي آلت إلى علي عليه السلام

ويبدو أنه بحث عنها كتابة في غير نسخته وغير نسخة علي بن أبي طالب فلم يجدها لدى من بحث عندهم حتى وجدها عند خزيمة وعندما وجدها توقف عن البحث لحصول التوثيق كونها محفوظة في الصدور ومعلومة بشكل متواتر وموجودة في نسخته الخاصة فاكتفى بذلك وأثبتها، أما غياب نسخة النبوة التي آلت إلى علي بن أبي طالب من عملية النقل عنها فقد ذكرنا الاحتمالات التي كانت سبباً لذلك.

وبعد أن فرغ زيد بن ثابت من عملية جمع النص القرآني في مصحف فإن واقع الحال في مثل هذا الموقف يقتضي من صاحب العمل أن يقوم بمراجعته وتدقيقه قبل تسليمه إلى رئيسه، وعندما يتم تسليم العمل وخاصة إذا كان على درجة من الأهمية والعظمة كهذا الأمر فإن الرئيس نفسه يقوم بالإشراف على استلامه والتأكد من صحته وخاصة أن الرئيس هو من علماء الصحابة ومن حفظة النص القرآني ومن كتبة الوحي وهو مَنْ هو عظمة وفضلاً ويكفي أنه (الصديق) فقطعاً قام بتدقيق النص المكتوب وأعطاه صفة التوثيق له والمصداقية كونه رئيساً للدولة وكان معه في كل خطوة وزيره عمر بن الخطاب صاحب الفكرة أساساً. وبذلك أخذ النص القرآني المكتوب في زمن أبي بكر توثيق ومصداقية دولته أضيف لتواتر حفظ النص المكتوب والإجماع على صحة ما كتب بالتمام والكمال فوصل النص القرآني إلى درجة التوثيق والصواب القطعي لايناقش بذلك إلا مكابر يغمض عينيه عن الحقيقة. ولما توفي أبو بكر انتقلت الصحف إلى

عهدة عمر بن الخطاب الفاروق وبقيت بعنايته وحفظه وكانت هي الإمام والمرجع إذا حصل أي خلاف في النص القرآني ولكن في واقع الحال لم يحصل ذلك أبداً ومَرَدُ ذلك راجع إلى تواتر النص القرآني في مجتمع الصحابة، وبعد أن توفي عمر ابن الخطاب انتقلت الصحف إلى حفصة بنت الخطاب كونها زوج النبي وأم المؤمنين وابنة الحاكم وبقيت عندها بالحفظ والصون.

توحيد التلاوات

والرسم للنص القرآني في زمن عثمان

لنر عمل عثمان في المصاحف من خلال ذكر الخبر التاريخي كاملاً كما جاء في الجامع الصحيح المختصر.

حدثنا موسى حدثنا إبراهيم حدثنا بن شهاب أن أنس بن مالك حدثه أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة فقال حذيفة لعثمان يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك فأرسلت بها حفصة إلى عثمان فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق قال بن شهاب وأخبرني خارجة بن زيد بن ثابت سمع زيد بن ثابت قال فقدت آية من الأحزاب حين نسخنا المصحف قد كنت أسمع رسول الله صلى الله

عليه وسلم يقرأ بها فالتمسناها فوجدناها مع خزيمة بن ثابت الأنصاري {من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه} فألحقناها في سورتها في المصحف .

الملاحظ من الرواية أن الموضوع متعلق بالقراءات المختلفة للنص القرآني بين المسلمين البعيدين عن مركز الدولة فسرعان ما شعر الحاكم بخطر الأمر، فطلب مصحف أبي بكر (الذي تم تواتره حفظاً والإجماع على صحة المكتوب فيه من قبل مجتمع الصحابة حينئذ والموثق من دولة أبي بكر ودولة عمر بن الخطاب) من حفصة وشَكَّلَ لجنة برئاسة زيد بن ثابت وأمرهم بنسخ بضع نسخ عن النسخة الأصلية صورة طبق الأصل وقال لهم إذا اختلفتم أنتم وزيد في رسم شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنه نزل بلسانهم ففعلوا ذلك، ولم يرد أنهم اختلفوا إلا في رسم كلمة واحدة وهي: [التابوت] فلقد قال زيد: تكتب [تابوة] فلم توافقه اللجنة وقالوا: بل تكتب [تابوت] ورفعوا ذلك إلى عثمان كونه الحاكم وأحد الحفظة وأحد كتبة الوحي ومن كبار قريش فقال:اكتبوها[تابوت] فإنها نزلت بلسان قريش.

وبعد ذلك تم تسليم النسخ المكتوبة للدولة ومن الطبيعي أن يقوم الحاكم بمراجعة وتدقيق ما طلب فعله للتأكد من صحته وبعد ذلك التأكد والمقارنة مع الأصل أرجع الصحف إلى حفصة كما وعدها، وأمر بتوزيع النسخ المكتوبة في الأمصار واحتفظ بواحدة عنده، وأصدر قراراً يقضي

بإحراق كل المصاحف القديمة بأية وسيلة كانت مجموعة وعلى أية قراءة، وفعلاً استجاب الصحابة طوعاً أو كرهاً لهذا الأمر وقاموا بإحراق ما لديهم من المصاحف وبعملهم هذا أعطوا لعمل عثمان المصداقية من الأمة والرضا عن عمله، وكان علي عليه السلام واحداً منهم فأحرق النسخة التي بحوزته – نسخة النبوة –[1] وذلك طاعة للحاكم ولعدم جدواها في واقع الحال كون النص القرآني توثق في المصاحف، وبعمله ذلك يكون قد أقر عمل عثمان وأعطاه المصداقية على عمله بل تبنى عمل عثمان ودافع عنه ممن حاول الغمز به، ولننظر إلى هذا الموقف من علي بن أبي طالب عليه السلام.

1- [لاتقولوا في عثمان إلا خيراً، فو الله ما فعل الذي فعل إلا على ملأ منا.] فتح الباري.

2- عن علي رضي الله تعالى عنه قال [لو وليت مثل الذي وُلِّيَ لصنعت مثل الذي صنع] سنن البيهقي الكبرى.

ومن المعلوم أن الإمام علي عليه السلام من المعارضين السلميين لسياسة عثمان في المال والحكم فلو أن عثمان وقع بأي غلط في عملية توحيد الرسم والقراءات للنص القرآني لكانت فرصة مناسبة لعلي ومن معه

---

[1] –أثبتنا ذلك من جراء معرفة مدى التزام علي بن أبي طالب ببيعته للحاكم على السمع والطاعة، وفقدان هذه النسخة وعدم ظهورها أبداً وخاصة عندما استلم الحكم علي بن أبي طالب ولو كانت موجودة لأظهرها.

في الخروج عليه وتأليب المجتمع ضده والظروف مناسبة جداً لهذا العمل، بينما نلاحظ أن الإمام علي عليه السلام سكت إقراراً وتصديقاً ودافع عن عثمان وتبنى موقفه وصرح لو أنه مكانه لفعل مثل ما فعل حفظاً على وحدة المسلمين في قراءة كتاب ربهم، وعندما استلم علي عليه السلام الحكم بعد عثمان استمرت عملية التصديق والإقرار لفعل عثمان بالمصاحف ولم يغير شيئاً بل أعطاه حكم الصواب بدفاعه عنه وتبنيه له وهذا يعني أنه قام بتوثيق عمل الحاكم السابق وبهذا العمل تكون نسخة القرآن المكتوبة قد توثقت من النبي نفسه ومن بعده من الخلفاء الراشدين الأربعة واحداً تلو الآخر والأمة معهم رقيب عتيد.

وعندما قام عثمان بإرسال النسخ الموثقة إلى مختلف الأمصار الإسلامية كانت مجرد أن تصل إلى هناك يقوم الوالي بالنسخ عنها عشرات النسخ، وهكذا تم في كل بلد وصلت إليه نسخة عثمان مما يعني انتشار النص القرآني المكتوب الموثق في مشارق الأرض ومغاربها سواء في البلاد العربية أو غير العربية مما يعني أن النص القرآني خرج من دائرة التواتر له كتابة عند العرب إلى الأقوام الأخرى وأصبح نصاً عالمياً متواتراً وتجاوز إمكانية الاختراق له زيادة أو نقصاناً.

ونعود للنص المعني بالشرح لإتمام نقاشه:

نلاحظ أن عثمان بن عفان قد عين لهذه المهمة زيد بن ثابت وهذا لعلمه أن زيداً هو من الحفظة وأحد كتبة الوحي ومن الذين شاركوا في

تأليف القرآن من الرقاع بحضرة النبي ومن الجامعين له كتابة بنسخة خاصة له وهو الذي قام بجمع النص القرآني بالمصحف في زمن أبي بكر، أي أن زيد بن ثابت هو في مقام الخبير بالنص القرآني وبالتالي فهو أصلح الموجودين للقيام بهذه المهمة فتم تكليفه دون غيره، ولم يكن القصد من عثمان الطعن أو الإنقاص من قيمة الآخرين، وإنما اختار الرجل المناسب للمكان المناسب وكان اختياراً موفقاً.

أما ما جاء في نهاية الرواية من فقدان آية من سورة الأحزاب فهذا خطأ واضح وذلك لأن الجمع لمادة النص القرآني موجودة منذ زمن النبي وتم جمعه مرة ثانية بزمن أبي بكر في مصحفه الذي وصل إلى أعلى درجة من التوثيق، أما في زمن عثمان فلم يتم جمع مادة النص القرآني لأنها مادة مجموعة خالصة جاهزة وموثقة ولذلك طلب المصحف من حفصة ليتم النقل عنه صورة طبق الأصل لازيادة عليها ولا نقصان وهذا يدل على أن هذه الحادثة ذكرها زيد عن عمله الأول الذي قام به في زمن أبي بكر ومن باب الشيء بالشيء يذكر أعاد القصة رواية في زمن عثمان ومن ثم تم إدراجها بنفس القصة من أحد الرواة فظن بعض العلماء أن ذلك حدث في زمن عثمان وهذا غلط فاحش يجب التنبه له.

أما النسخة الأصلية – البكرية – التي أرجعها عثمان إلى حفصة فإنها بقيت عندها إلى أن توفيت فانتقلت إلى أخيها عبد الله بن عمر فطلبها منه مروان بن الحكم وكان والي المدينة حينئذ وأمر بإحراقها خشية

أن تقع في يد أحد فيقوم بتحريفها مما يؤدي إلى نقض كل المصاحف التي نُقلت عنها كونها هي الأصل[11]، وفعلاً تم إحراقها وبهذا العمل أصبحت جميع النسخ المنسوخة عنها بشكل مباشر هي أصل بحد ذاتها كونها موثقة ومصدقة من الدولة بعهد أربعة حكام حكموا حوالي ثلاثين عاماً.

الخلاصة هي:

1 - تواترَ النص القرآني تلاوة وحفظاً وتَوَثَّقَ كتابة في عهد النبي نفسه وبإشرافه على الرقاع والألواح.

2 - أضاف أبو بكر لما سبق التواتر التوثيقي لنص القرآن كتابة وانعقد على ذلك الإجماع بزمنه وانتقل الجمع من الرقاع والألواح إلى الصحف وظهر اسم المصحف.

3 - قام عثمان بنقل التواتر وتوسيع دائرته من العرب إلى خارج العرب للنص القرآني المكتوب وذلك من جراء توحيد رسم وتلاوات النص القرآني، واستمر ذلك في المجتمعات إلى يومنا المعاصر والنص القرآني يزداد توثيقاً وحفظاً مما أدى إلى استحالة اختراق النص القرآني كلما تقادم الزمن عليه، وصار أصح وثيقة تاريخية في زمننا المعاصر بل دخل دائرة الحق وأصبح من المسلمات العلمية في صحة متنه وعدم تعرضه لأي اختراق زيادة أو نقصان.

([11]) المصاحف لأبي داوود.

التلاوات سنة متبعة وليست مبتكرة

إن التلاوات للنص القرآني كانت تعتمد في الدرجة الأولى على السماع والتلقي من مجتمع الصحابة الذين تفرقوا في الأمصار على أثر الفتوحات الإسلامية مما أدى إلى انتشار تلاوة في مكان بحسب الصحابة الذين يتلونها وانتشار تلاوة أخرى في مكان آخر حسب الصحابة الموجودين في ذلك المكان مع العلم أن هذه التلاوات كانت محل تواتر ورضا من قبل مجتمع الصحابة والذي جرى أن كل مجموعة غير معينة ارتضت تلاوة ألزمت نفسها بها وأخذت تتلوها على الناس شفاهاً، وسمعها الناس وحفظوها في الصدور كما سمعوها، وهكذا تم تداول التلاوة من مجتمع إلى آخر بشكل متواتر في الزمن الواحد، وكان يتصدر لتعليم الناس التلاوة للنص القرآني رجال قد حازوا رضا علماء زمانهم بالنسبة للحكم على صحة تلاوتهم فضلاً عن قبولها من مجتمعهم دون نكير مما أدى مع الزمن إلى إعزاء كل تلاوة لأشهر من يقوم بتعليمها واشتهرت نسبة له من هذا الوجه ليس إلا، ولا يعني هذا أن التلاوة غير معروفة قبل هذا الشيخ بل هي معروفة ومتواترة قبله بين الناس وهو عندما قام بتلاوتها لم يأت بجديد لا يعرفه الناس وإنما قام بتلاوة النص القرآني كما يتلوه المجتمع الذي ينتمي إليه هو ولكنه لقيامه بعملية التدريس والإلقاء وتواصل المجتمعات الإسلامية مع بعضها أدى إلى إعزاء كل تلاوة لأشهر من يقوم بتعليمها مع وجود

غيره يقوم بالعمل نفسه وكل ذلك لتمييز التلاوات من بعضها مع العلم أن هناك بعضاً من رجال الكوفة وضعوا تلاوات حسب الرسم للنص القرآني غير المنقط فتلقف المستشرقون ذلك، وعنهم أخذ بعض الباحثين العرب وقاموا بجعجعة وصالوا وجالوا وملؤوا الدنيا صراخاً وضجيجاً بأبحاثهم يحاولون الطعن في حفظ النص القرآني من خلال هذه الثغرة، رغم أن الباحث الموضوعي يدرك تهافت هذا الرأي وبطلانه من عدة أوجه هي محل تسليم عند العلماء والأمة جميعاً منها:

1- التلاوات للنص القرآني كانت موجودة ومتداولة قبل رسم النص القرآني في زمن عثمان مما يدل على انتفاء سببيته في ولادة التلاوات.

2- ظهور التلاوات للنص كان متزامناً مع استمرار نزول القرآن ذاته في مجتمع الصحابة.

3- التلاوة للنص القرآني كانت متواترة في كل مجتمع بعد مجتمع الصحابة.

4- التلاوات كانت تعتمد أصلاً على التلقي والسماع وليس على الرسم المكتوب.

5 - جميع من كان يتصدر تعليم الناس التلاوات إنما تلقى النص القرآني عمن قبله سماعاً إلى مجتمع الصحابة، وكان علماء التلاوات يعطون إجازات في التعليم لتلاميذهم على مرأى ومسمع من المجتمع.

6- لو كان اختلاف التلاوات نتيجة احتمال رسم النص القرآني غير المنقط لعدة أوجه من الدلالات التي يحتملها السياق اللغوي لوجب أن

يشمل ذلك مجموع مادة النص القرآني لجريان الأمر نفسه عليها من حيث احتمال الرسم لأوجه من الدلالات يحتملها السياق واللغة.

بينما نلاحظ أن اختلاف التلاوات كان لمجموعة محددة من الكلمات دون غيرها وقد تم الاعتناء بها وحفظها من قبل العلماء وإقراؤها للناس على هذا الوجه، وهذا يدل على أن التلاوة سنة متبعة بشكل تلقي من مجتمع إلى من سبقه إلى مجتمع الصحابة إلى النبي عن الوحي.

فاختلاف التلاوات لا يمكن أن يكون اختلاف تناقض أو تضاد، وإنما اختلاف تنوع، وهذا الاختلاف يعطي للنص بعداً آخر غير الوجه الذي أظهرته التلاوة الأخرى مما يزيد في مساحة فضاء الدلالات الكامنة في النص.

ولقد وضع العلماء شروطاً لقبول التلاوة واعتمادها كنص قرآني منزل، وهي:

1- تواتر التلاوة سماعاً. وهذا الشرط هو الأصل والأساس وما سواه إنما لضبط وتوثيق التلاوة.

2- موافقة التلاوة للرسم العثماني، كون النص القرآني المكتوب في زمن عثمان أخذ صفة التوثيق والتواتر له كتابة من قبل مجتمع الصحابة، بخلاف التلاوة الخارجة عن الرسم العثماني فقد توقف تواترها وتقلصت إلى درجة الانقراض نتيجة أمر عثمان بحرق كل المصاحف القديمة وإلزام الأمة برسمه فقط والتلاوات التي تضمنها رسمه.

3- موافقة التلاوة للسياق اللغوي ودلالته.

لننظر إلى قوله تعالى من سورة الأنعام رقم (57) :

أ - [إنِ الحكمُ إلاّ للهِ يَقُصُّ الحقَّ وهو خيرُ الفاصلين] .

رواية عاصم ونافع وابن كثير وأبي جعفر.

ب – [إنِ الحكمُ إلاّ للهِ يَقْضِ الحقَّ وهو خيرُ الفاصلين] .

رواية باقي العشرة.

فكلمتا (يقض) و (يقص) دون تنقيط تصير تحتمل أكثر من وجه للتلاوة ،ويظن الإنسان أن ذلك الاختلاف في التلاوة مرده احتمال الرسم للوجهين، وقد بينًّا آنفاً تهافت هذا الرأي فهناك شرط أساسي قبل موافقة التلاوة للرسم هو التلقي للفظ سماعاً وقد كان ذلك موجوداً ومتداولاً قبل التنقيط بزمن ليس بالقليل.

لننظر أيضاً قوله تعالى من سورة الزخرف (19) :

[وجعلوا الملائكةَ الذين هم عِبادُ الرحمنِ إناثاً] .رواية حفص عن عاصم.بوجود ألف فوق حرف الباء.

[وجعلوا الملائكةَ الذين هم عِنْدَ الرحمنِ إناثاً] رواية ورش عن نافع.

وقوله من سورة الفاتحة(4) :

[مَلِكِ يومِ الدين] رواية حفص عن عاصم.

[مَلِكِ يومِ الدين] رواية ورش عن نافع.

وقوله من سورة البقرة (259) :

[وانظرْ إلى العظامِ كيفَ ننْشُرُها ثمَ نَكْسوها لحماً] .

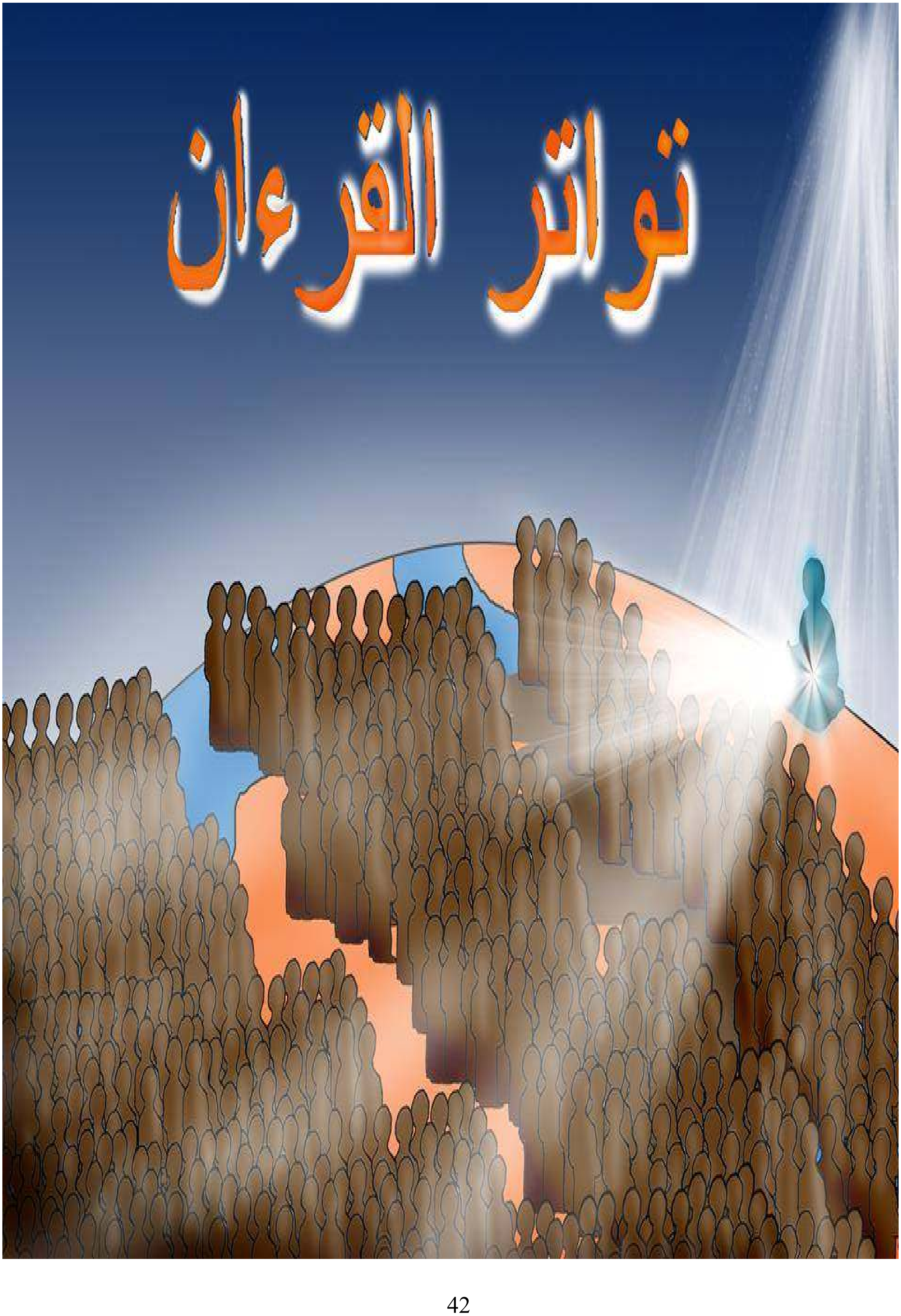
نافع، ابن كثير، أبو عمرو، أبو جعفر، يعقوب (ورقَّقَ ورش راءه).

[وانظرْ إلى العظامِ كيفَ ننْشِزُها ثمَ نَكْسوها لحماً] الباقون.

ومن خلال الأمثلة السابقة ظهر لنا ضبط التلاوة على الرسم العثماني وموافقتها للغة بعد أن تحقق بها الشرط الأساسي الذي هو تواتر التلاوة سماعاً وتلقياً.

ومن الأدلة على أن سماع التلاوة هي الأصل وليس الرسم، طريقة تلاوة الأحرف في بداية السور، مثل (كهيعص) لم يتلوها أحد كلمة واحدة، ولم يلفظ أحد صوت الحرف فقط أي: ك هـ ي ع ص، وإنما اتفق الجميع على أن طريقة لفظها هي بأسماء الأحرف ،أي : كاف هاء ياء عين صاد، وذلك لتلقيها سماعياً تواتراً .

وظهر لنا أيضاً أن اختلاف التلاوات ليس هو اختلاف تضاد أو تناقض إنما هو اختلاف تنوع وتغاير يعطي للنص بُعْداً جديداً كامناً في التلاوة الأخرى.


تواتر القرءان

كيف نشأت التلاوات ؟

بعد ما علمنا أن التلاوات سنة متبعة وليست مبتكرة يظهر تساؤل وإشكال وهو:

هل تَعَدَّدَ نزول النص القرآني الواحد بعدد أوجه التلاوات المتعلقة به؟

والجواب عن ذلك هو:

إن النص القرآني كما هو ثابت في التاريخ قد نزل متفرقاً خلال ثلاثة وعشرين عاماً تقريباً وكان النص ذو المتن الصغير ينزل كاملاً على الأغلب، بخلاف النص ذي المتن الكبير فقد كان ينزل على دفعات، ومن يقوم بدراسة كيف نزل النص القرآني يجد أن النصوص التي نزلت سابقاً كان يعاد مراجعتها من قبل الوحي مع النبي في العام مرة واحدة، أما بالنسبة للسور الطويلة فكان عندما يتم نزول بقية الآيات كان الوحي إمَّا أن يعيد تلاوة النص السابق حتى يصل لمحل الآيات الجديدة فيتلوها بمكانها، أو يعيد بضع آيات فقط ثم يتلو الآيات الجديدة على أثرها ليتم ربط الآيات ببعضها وإظهار محلها من السورة وهذا ما كان يفعله النبي بعد انتهاء الوحي فقد كان يطلب أحد كتبة الوحي المتواجدين حينئذ ويأمره أن يضع هذه الآيات الجديدة بين آية كذا وآية كذا من سورة كذا، واستمر نزول النص القرآني على هذا النمط مع استمرار مراجعة كل ما نزل سابقاً من قبل الوحي وتعهده بالحفظ حتى كان العام الأخير الذي توفي فيه النبي فقد

تمت مراجعة النص القرآني كاملاً مرتين كما ورد في الخبر التاريخي وذلك لضبط وتوثيق النص كاملاً، وهذه التي يسميها العلماء العرضة الأخيرة للنص القرآني على النبي.

فالنص القرآني لم ينزل مرتين، وإنما نزل مرة واحدة ولكن عرضه ومراجعته مع النبي تَمَّ مرات ومرات طوال فترة نزول النص، وهذا الأمر يفسر نشوء اختلاف التلاوات فلقد حصل ذلك أثناء العرض والمراجعة من قبل الوحي وليس في بدء نزول النص فالتلاوات نشأت في العهد المدني ولم يكن لها وجود في العهد المكي، وهذا يفسر أيضاً سبب علم مجموعة من الصحابة بتلاوة ومجموعة أخرى بتلاوة ثانية فمرد ذلك راجع إلى مسألة مراجعة ومدارسة النص القرآني المتكررة من قبل الوحي ونتج عن ذلك تواتر كل تلاوة في مجتمع الصحابة. وكون النص القرآني كان يكتب فور نزوله فمن الطبيعي أن لا يكتب أثناء المراجعة والمدارسة له وهذا يدل على أن الرسم للنص القرآني لا يحتوي أوجه التلاوات وبالتالي بقيت التلاوات وسيلتها الوحيدة والأساسية للنقل هي التلقي سماعاً وحفظ ذلك في الصدور، وبناء على ذلك لم يحتو الرسم العثماني كل أوجه التلاوات التي تم استخدامها في مجتمع النبوة، وإنما احتوى مجموعة منها، وكون هذا الرسم قد تبنته الدولة وقامت بنشره وحفظه وأمرت بإلغاء الأوجه الأخرى للتلاوات للمصلحة العامة تقلصت التلاوات الأخرى من المجتمع ومنع من تداولها فبقيت تلاوة شخصية لصاحبها مما أدى مع الزمن إلى انقراضها أو نقلها عن طريق

الآحاد وبقيت التلاوات التي تضمنها الرسم العثماني ولذلك وضع العلماء من أحد شروط التلاوة موافقة هذه التلاوة للرسم العثماني لأن الرسم العثماني أخذ صفة التوثيق من الدولة والمجتمع الإسلامي حينئذ، أما التلاوات الأخرى فلقد انقطع تواترها ولا يمكن إثباتها، فمن هذا الوجه ظهرت التلاوات الآحاد الصحيحة السند والتلاوات الشاذة ولم يعدها العلماء نصاً قرآنياً، وبالتالي لا يتعاملون معها كذلك وإنما سمحوا بالتعامل معها كخبر ظني غير ملزم يساعد في التفسير والفهم ليس إلا.

اختلاف التلاوات لا يؤثر على الأحكام

إن الله عز وجل قد أنزل رسالة واحدة للناس جميعاً دون محاباة لأحد وبالتالي فهي إنسانية في توجهها، عالمية في حركتها، دائمة في سيرورتها، متطورة في صيرورتها. ولأن القرآن متصف بهذه الصفات فلا شك أن خطابه التشريعي موجه للناس على المستوى نفسه مهما اختلفت التلاوات وتنوعت، فالحكم الشرعي لا يتغير بحق الناس من تلاوة إلى أخرى وخاصة أن كل تلاوة متواترة للنص القرآني جامعة مانعة قائمة بذاتها وهي حجة ملزمة على من ألزم نفسه بها لا يحتاج إلى أية تلاوة أخرى. فما الجديد الذي يعطيه اختلاف التلاوات وتنوعها في هذا الصدد؟!

ولشرح ذلك نضرب مثلاً لتقريب الفكرة: إذا افترضنا أن هذا الوجود (الآفاق والأنفس) لوحة فنية مجسمة في الواقع وجاء مبدع هذه اللوحة ليتكلم عنها ويصفها وقام بهذا العمل عدة مرات واستخدم في كل مرة أسلوباً للكلام، فالسامع له في المرة الأولى أخذ حاجته واكتفى، والسامع في المرة الثانية أخذ حاجته واكتفى، وهكذا بالنسبة لكل سامع، فلو التقى هؤلاء السامعون مع بعضهم وقام كل منهم بإعادة الحديث الذي سمعه من مبدع اللوحة لوجدنا أن اختلاف حديثهم عن بعضهم لا يكون اختلاف تناقض أو تضاد أبداً لأن المتحدث واحد، ومحل الحديث - اللوحة - واحد، ونجد الاختلاف يكون في عملية تسليط الضوء على أمر مع جعل ظلال على آخر.

وهكذا في الحديث الآخر يتم تسليط الضوء على ما كان تحت الظل وجعل الأمر السابق المسلط عليه الضوء تحت الظل، وفي الحديثين كليهما نجد أن كلاً منهما يكمن في مضمونه ما هو ظاهر وصريح في الحديث الآخر، والأمر يحتاج من الباحث لجهد عقلي ليدركه من جراء النظر والتدبر في النص ومحله من الواقع – آفاق وأنفس – .

إذاً؛ اختلاف التلاوات لا يؤثر على التفسير أبداً وإنما الذي أثر في اختلاف التفسير هو القصور من الباحث على جانب من أبعاد دلالة النص اكتفى به دون دراسة ما تحت الظل الذي جاءت به تلاوة أخرى وسلطت عليه الضوء دون غيره من أبعاد دلالة النص، فاختلاف التلاوات هي عملية لتغطية كامل أبعاد النص وتسليط الضوء على أجزائه. وما ذكرناه آنفاً ينطبق على آيات التشريع تماماً، فالحكم الشرعي هو واحد، وكل تلاوة متواترة للنص القرآني كامن فيها ما جاء بتلاوة أخرى بشكل صريح وواضح لذلك كل تلاوة كافية شافية، والأمر يحتاج من الباحث أن ينظر إلى كامل اللوحة ويدرك ما تحت الظلال، مع العلم أن الاختلاف في تلاوة آيات التشريع قليل جداً ولنرَ على ذلك مثلاً:

قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِ ﴾ (المائدة 6). فكلمة [أرجلكم] تُليت بالنصب، وتُليت بالجر وكلاهما متواترة.فلو أخذنا حالة النصب فقط كما هي في رواية حفص عن

عاصم (وهذه القراءة يقرأ بها معظم البلاد الإسلامية) فلقد ذكر العلماء أن كلمة (أرجلكم) بالنصب تكون معطوفة على كلمة (أيديَكم)وبالتالي أخذت حكمها من حيث الغسل، وهذا الأمر واضح وصريح من دلالة النص، أما الدلالة الكامنة في النص فهي مجيء كلمة (أرجلكم) معطوفة بعد فعل المسح، فلو كان المراد هو الغسل فقط لجاءت بعد فعل الغسل وكونها جاءت بعد فعل المسح مما يدل على تناول فعل المسح للرجلين إضافة لفعل الغسل.

بينما تلاوة الجر لكلمة (أرجلِكم) فقد أرجعها العلماء عطفاً على كلمة (برؤوسِكم) والمعطوف يأخذ حكم المعطوف عليه وبالتالي تكون دلالة النص الظاهرة هو مسح الأرجل أما الدلالة الكامنة في النص فهي أن جملة (وأرجلكم إلى الكعبين) سواء أكانت بالنصب أم بالجر فهي على نمط جملة (وأيديكم إلى المرافق) من حيث تحديدها لمكان الوضوء.

فنلاحظ أن كل تلاوة منهما كافية شافية، وأن كلاً منهما يكمن فيها ما جاء بالأخرى في الظل فالحكم عند الدراسة الوافية للموضوع سواء تمَّ الاعتماد على تلاوة النصب أم الجر لكلمة [أرجلكم] يكون واحداً لا خلاف بينهما أبداً، وإذا حصل خلاف فمرده إلى قصور الباحث وعدم إمكانية رؤية أبعاد دلالة النص كاملاً.

ولنرَ مثلاً آخر: قال تعالى:﴿ وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَ ﴾ (البقرة 222) .

بتسكين الطاء. تلاوة عاصم ونافع وغيرهم.

وفي تلاوة أخرى [يَطَّهَرْنَ] بتشديد الطاء. قراءة حمزة والكسائي وغيرهم.

وتتمـة الآيـة ﴿ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ (البقرة 222).

فالنص واضح وصريح وكل قراءة منهما كافية شافية فالمقصد مسلط عليه الضوء في تتمة النص وذلك بقوله تعالى (فإذا تطهرن)، والفعل راجع إلى المرأة نفسها فلا يمكن أن تعرف المرأة أنها طَهُرَتْ إلا إذا تتبعت أثر الدم بخرقة أو نحوها وتغسل مكانه أو تمسحه وهذا هو الحد الأدنى لعملية التطهير من الحيض، فإذا تمَّ التأكد من الطهارة أبيح للرجل ما نُهِيَ عنه سابقاً. وهذا المعنى كامن في النص بالقراءتين كلتيهما.

وهكذا نتعامل مع كل نصوص التشريع التي لها أكثر من تلاوة، ومن هذا الوجه وصف النبي الأعظم التلاوات بأن كل تلاوة وحدها كافية شافية قائمة بنفسها مستغنية عن غيرها من التلاوات، والحفظ الإلهي مستمر للنص القرآني[1] يظهر في كل زمن بأرقى ما فيه من تقنية وأدوات معرفية حتى وصل في زمننا إلى درجة عظيمة لم تكن تخطر ببال إنسان في السابق فقد أصبح النص القرآني محفوظاً في الأثير بواسطة الأتمتة الإلكترونية التي وصل إليها الإنسان، والحفظ ما زال مستمراً يوماً بعد يوم، لذلك ذكرنا سابقاً أن النص القرآني فوق النقد والنقض، وقد تجاوز منذ زمن نزوله أية

---

(1) -الحفظ الإلهي للنص القرآني يتحقق في الواقع كحد أدنى بحفظ تلاوة واحدة للنص القرآني لأنَّ كل تلاوة كافية شافية، فما بالك بعشرة أوجه للتلاوات!!

محاولة لاختراقه، والاستحالة مستمرة مع الزمن تتناسب طرداً مع الأدوات المعرفية لكل مجتمع.

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ .

النص القرآني
وحي من الله لساناً

إن الوحي لنص القرآن كان بلسان عربي ينزل على قلب الرسول الذي يقوم بدوره بتلاوة ما نزل عليه على الناس، وليس كما يظن بعض الباحثين من المستشرقين ومن تبعهم من العرب أن الوحي للقرآن كان للمعنى والمفاهيم فقط دون لسان، والرسول يقوم بتأليف نص لساني يتضمن هذه المفاهيم والمقاصد الإلهية ويتلو ذلك النص الذي ألفه على الناس ويقصدون من قولهم ذلك نفي المصدرية الربانية عن النص القرآني وإثبات أنه من تأليف النبي محمد الذي هو في النهاية بشر مثل باقي البشر، وكون الأمر كذلك فالنص القرآني على أقل احتمال من صنع البشر كصياغة لسانية وبالتالي ممكن اختراقه بل ويعتقدون أنه تم ذلك فعلاً في التاريخ اعتماداً على روايات موضوعة ومدسوسة وإشكاليات سياسية حدثت، وبالتالي يجب نفي صفة استمرار صلاحية النص القرآني كمضمون لانتفاء صواب وحفظ النص لساناً فضلاً عن أنه من صنع محمد ولا يمكن لبشر أن يصنع نصاً مقدساً تتحقق فيه صفة الاستمرار والصلاحية كمضمون عبر الزمان والمكان، وهذا يقتضي أن النص القرآني إنما هو نص كسائر النصوص البشرية، وبالتالي فهو من التراث البشري ويجب أن نتعامل معه كما نتعامل مع أي نص من التراث!!.

وهذا الكلام باطل في واقع الحال، ومخالف لما قام العلم عليه من حيث

أن اللسان أي كان فهو أداة للتواصل بين العقلاء ليتم التفاهم بينهم، ولا يمكن لعاقل أن يتواصل مع آخر دون استخدام لسان، ناهيك عن أن التفكير في القلب لا يمكن أن يتم إلا من خلال استخدام رموز ومصطلحات يتم على موجبها تمييز المعلومات وتخزينها وربطها وهذا نظام لساني مهما كان نوعه. فكيف كان الوحي ينزل على النبي بالمفاهيم والمقاصد دون لسان؟

وكيف استطاع النبي أن يعقل هذه المفاهيم والمقاصد وهو لا يدرك واقعها؟

قد يقول قائل إن الله على كل شيء قدير، وهذا الجواب مغالطة للحقيقة وتدليس لأن الموضوع متعلق بمحمد وهو بشر له صفات البشر من حيث المحدودية والضعف والعجز كصفات لازمة له ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ . فينطبق عليه ما ينطبق على البشر، فيتم نقاش الموضوع من وجهة النبي كبشر وليس من جهة الخالق وأنه على كل شيء قدير! فالإنسان محدود بصفاته وتحكمه قوانين لا يحيد عنها أبداً هكذا خلقه الله عز وجل فعندما يريد الله أن يوحي لخلقه شيئاً فإنه يستخدم القانون الذي وضعه في هذا الخلق. ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾

فالنبي بشر لا يستطيع أن يفكر ويتواصل إلا بواسطة لسان وواقع يكون محلاً له.

ومن المعلوم أن النص القرآني قد احتوى كثيراً من الأنباء العلمية التي لم تعرف إلا في زمننا هذا، فكيف يستطيع النبي أن يصيغ نصاً يحتوي دلالات ومقاصد لا يعرفها ؟!

ومن المعلوم أن الذي يصيغ نصاً ليدل على مقاصد آخر قطعاً يكون قد أحاط بمقاصده ليستطيع أن يصيغ نصاً يحتوي على دلالات ومقاصد المتكلم، وهذا الأمر محال بالنسبة لبشر أن يحيط بدلالات ومقاصد الخالق إذ لو تم ذلك لأصبح البشر شريكاً مع الله بالعلم على المستوى نفسه.

إذاً لا تفكير إلا ضمن لسان، ولا تلَّقٍ لأية معلومات إلا بواسطة لسان بصرف النظر عن نوعية اللسان فمن خلاله يتم تخزين المعلومات واستحضارها وربطها وتطورها واستقراء الجديد، فاللسان هو وعاء للمعرفة والعلوم سواء أكان نظام الكلام بالعيون أم بالإشارة باليد أم الإيماء بالجسم؟!...إلخ.

والوحي الفكري والتشريعي إذا لم يكن نصاً لسانياً فسيكون وحياً منامياً يعتمد على الصور والرموز نحو وحي النبي إبراهيم عندما رأى نفسه أنه يذبح ابنه إسماعيل إذ قال: ﴿ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾ وهذا الوحي الصوري خاص لصاحبه ولا يكون فكراً وتشريعاً للناس ولا يصلح نشره على الناس، أو يكون الوحي وحياً غريزياً نحو قوله تعالى: ﴿ وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ﴾ فهذا الوحي للنحل لم يكن نصاً لسانياً وإنما كان أمراً كونياً توجه إلى غريزة النحل فانفطرت عليه لتسير بحسبه.

إذاً؛ الوحي للعاقل في حالة اليقظة والوعي لا يكون إلا ضمن نص لساني حصراً حتى يتم فهمه من قبل من أوحي إليه نحو وحي أم موسى ﴿ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِ ﴾
بصرف النظر عن الوسيلة التي تم بها الوحي.

أما حفظ مادة الوحي من التحريف والاندثار فهي مسألة متعلقة بوظيفة النص الموحى من كونه نصاً عينياً مرتبطاً بالزمان والمكان فهذا لا شك من وقوع التحريف فيه والاندثار، وذلك شيء طبيعي لأن وظيفته منذ البدء مؤقتة وليست دائمة، ولذا؛ لم يتعهد الله بحفظه وإنما ترك ذلك للناس فوصل منه أمور وغابت أخرى وتحرفت بعض النصوص، أما إذا كان النص الموحى يتصف بالكمال (وهذا يقتضي أن يتحقق فيه صفة الديمومة والإنسانية والصلاحية) كان منذ البدء يختلف في بنيته ومنظومته عن الوحي السابق العيني إذ يحتوي في نظمه قوة حفظه واستمراره من حيث عطاؤه المعرفي وذلك لارتباط النص بمحل خطابه واحتوائه للموضوع منذ البدء إلى النهاية، وتقوم المجتمعات البشرية باستخدام أدواتها المعرفية لفهم النص ويبقى النص الكامل يقوم بعملية التوجيه والقيادة فهو دائماً في مركز الريادة لكل المجتمعات.

إذا وحي القرآن للنبي قطعاً كان بشكل نص لساني ينزل على قلبه وبعد انتهاء الوحي يقوم الرسول بتلاوة ما نزل عليه تماماً دون زيادة أو نقصان.

لنرَ ذلك من خلال النص القرآني نفسه:

﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ (النمل 6) .

﴿ تلك ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ (البقرة 252).

﴿ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْأَيَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ (آل عمران 58).

هذه الآيات صريحة في دلالتها على أن الوحي كان يتم من خلال تلاوة النص القرآني على النبي، والتلاوة كلمة تدل ضرورة على وجود نص يكون محلاً للتلاوة، بخلاف المعاني والمقاصد فإنها لا تُتلى[1] ناهيك عن نفي تلقيها إلا بواسطة لسان يكون وعاءً لها يتم من خلاله الفهم والتفكير والتواصل مع الآخرين.

وكون الوحي يتم من خلال نص يُتلى مما يعني أنه لابد من وجود لسان معين ليكون هو لسان الوحي، ولم يكن في الواقع بالنسبة للنص الكامل إلا اللسان العربي.

1 - ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (يوسف 2).

2 - ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ (الشعراء 193 - 195).

---

[1] وهذا دليل على أن الأحاديث النبوية ليست وحياً من الله حسب تعريفها التراثي، أما ما كان منها وحياً بشكل خبر فهو خاص للنبي ومجتمعه وليس له صفات النص القرءاني بدليل التحريف والاختراق الذي أصاب مادة الحديث النبوي. راجع كتابي «تحرير العقل من النقل وقراءة نقدية لمجموعة من أحاديث البخاري ومسلم» .

فالنص الموحى إلى النبي بواسطة تلاوته عليه[2] كان نصاً مؤلفاً من اللسان العربي، وتلاوة النص القرآني على النبي لم تكن تمر عبر عضو السمع الذي هو الأذن لأن الأمر لو كان كذلك لسمعه من كان بجانبه، مما يؤكد أن الوحي كان يتجاوز الأذن ويقوم بتلاوة النص القرآني في مركز السمع من الدماغ مباشرة، وهذا ما يفسر غيبوبة النبي أثناء الوحي عما يجري حوله من الواقع وتعرقه كما صح في الروايات التي وصفت حال النبي أثناء نزول الوحي عليه. بل إن الأمر أكبر من ذلك بكثير فإن النبي لم يحفظ النص القرآني المتلو عليه من قبل الوحي لأنه لو كان النبي يحفظ النص القرآني بإمكانياته البشرية لاقتضى أن ينسى بعضاً منه وذلك كصفة بشرية لازمة له، بينما الواقع أن الوحي قام بتلاوة النص القرآني في مركز السمع من الدماغ ومن ثم ثَبَّتَ النص القرآني في الذاكرة بحيث لا يقبل الزيادة أو النقصان أو النسيان له لأن أمر الحفظ لم يترك لإمكانية النبي وإنما تعهد الله عز وجل بحفظه ابتداء واستمراراً وانتهاءً فقال سبحانه وتعالى:﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴾ (الأعلى 6).

﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴾ (القيامة 16،17).

﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ

---

[2] للتوسع في معرفة كيف تم الوحي راجع كتابي :(الألوهية والحاكمية) فصل شرح صفة الكلام لله عز وجل .

زِدۡنِي عِلۡمٗا ﴾ (طه 114).

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ﴾ (النجم 3-4).

﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (الحجر 9).

فالرسول عندما كان يتلو النص القرآني كان يقوم بذلك دون أدنى جهد منه، ويجري على لسانه كجريان الماء في النزول دون توقف أو تلكؤ، وذلك كله لأن النص القرآني منقوش في ذاكرته لا يتعرض لأية عملية من النسيان أو الخطأ، كما أن الله قد تعهد بأن لا يسمح للرسول الذي اختاره من دون الناس لهذه المهمة أن يقوم بالتقول على الله فقال تعالى: ﴿ وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ﴾ (الحاقة 44 - 46).

فالإعدام الفوري للرسول (الذي اختاره الله لتأدية الرسالة) إذا تجرأ على أن يتقول على الله ما لم يقل، وذلك لأن الرسول يملك الإرادة في عملية الكفر والإيمان، الصدق والكذب ولم يسلبه الله عز وجل هذه الإرادة، وعلى موجبها كان الرسول أفضل الناس إيماناً وأصدقهم خبراً، وذلك لعظيم فضله وعلمه بالله وخشيته منه، وهذا الإيمان والعلم بالله وخشيته يكسب النبي عصمة إرادية[1] تعصمه عن الكفر والكذب على الله، لذا؛ لم ينقل لنا التاريخ أن رسولاً من رسل الله قد كذب على الله ما لم يقل: ﴿ إِنَّمَا

[1] راجع كتابي «تحرير العقل من النقل وقراءة نقدية لمجموعة من أحاديث البخاري ومسلم». فصل العصمة.

تَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُاْ ﴾ . والأنبياء هم سادة العلماء، والعلماء ورثة الأنبياء بالعلم والمعرفة والاستقامة والدعوة إلى الله عز وجل.

وبعد أن نزل النص القرآني تلاوة على الرسول بواسطة الوحي أمره الله عز وجل أن يقوم بواجبه كرسول بتلاوة ما نزل عليه من الوحي على الناس جميعاً.

1 – ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ وَأَنْ أَتْلُوَاْ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾ (النمل 91 – 92).

2 - ﴿ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَـٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَـٰنِ ﴾ (الرعد 30).

3 - ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ (العنكبوت 45).

4 - ﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ ﴾ (الكهف 27).

5 - ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (يونس 16).

إذاً فتلاوة النص القرآني على النبي من قبل الوحي يتبعها تلاوة النبي للنص القرآني على الناس عامة الذين قاموا بحفظ النص القرآني وتلوه على من بعدهم، وهكذا استمرت تلاوة النص القرآني عبر الأجيال إلى زمننا المعاصر. وقد أكد الله أن الوحي قد تم من خلال نص لساني ومجموعة هذه النصوص الموحاة شكلت الكتاب الذي أراد الله إنزاله للناس، قال

تعالى:

﴿ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۚ بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴾ السجدة (2- 3)

وعملية الافتراء تكون بالمعنى وتكون باللفظ. أما افتراء المعنى فيكون أن يتعمد الإنسان بوضع دلالة للنص غير مقصودة من النص نفسه ولا يحتملها كسياق لساني. وافتراء اللفظ يكون بنسبة قول إلى الله لم يقله ولم ينزله على رسوله.

وافتراض أن النص القرآني هو من تأليف وصياغة النبي لفظاً لدلالة ومقصد إلهي ومع ذلك يقول (محمد) إن هذا النص من عند الله عز وجل فهذا هو الافتراء بعينه وهذا غير مسموح في واقع الحال كون الخالق تعهد بإعدام الرسول الذي يتقول عليه ما لم يقل.

فالنص المتلو عليكم هو النص الذي نزل على الرسول وقد قام بتلاوته كما نزل تماماً، وبالتالي أخذ صفة الحق لأنه صادر من الحق، وبناء على ذلك المفهوم تمَّ التحدي للناس عبر الأجيال في كل زمان ومكان أنكم إذا ادعيتم أن النص القرآني من صياغة النبي محمد أو غيره من البشر فلتأتوا بسورة من مثله ، فلتأتوا بنص لساني مثله وذلك من منطلق أن عمل البشر مهما سما في عمله وأبدع يبقى واحداً من البشر، وبالتالي ممكن أن يأتي آخر فيعمل مثله أو أحسن منه.

قال تعالى : ﴿ وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٍ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٍ مِّن

﴿مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ (البقرة 23).

فهذا النص القرآني وحي من الله بصياغته اللسانية فإذا كنتم في ريب وشك من ذلك فاءتوا بسورة من مثله:﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾ (البقرة 24).

وإن عجزتم عن قبول التحدي لعلمكم بضعفكم ومحدودية علمكم فأقل عمل ممكن أن تعملوه لمصلحتكم الخاصة هو أن تحموا أنفسكم من النار التي وقودها الناس والحجارة التي أعدت للذين علموا الحق وكفروا به استكباراً واستخفافاً وإيثاراً للدنيا وزخرفها على الآخرة.

وأخيراً يجب العلم أن النص القرآني لو كان من صياغة النبي على افتراض ذلك لاقتضى أن يكون :

1 – النص القرآني من الناحية اللسانية ضمن مستوى الكلام السائد في زمانه.

2 – أن يكون محدوداً من حيث الدلالة.

3 – أن يكون موجهاً بخطابه لقومه المعاصرين له.

4 – أن تنتفي عنه صفة التحدي والإحكام، وأن لا يحكم سلفاً على الخصوم بالفشل والعجز.

5 – أن يظهر خلاف بين النص ومحله من الخطاب مع الزمن لأن البشر لايعلم الغيب.

6 – وجود أعمال من الناس تكون نداً للنص القرآني أو مثيله ناهيك عن

الأحسن منه.

فادعاء أن النبي محمد هو من صاغ النص القرآني لساناً أمر سهل التأكد منه لوجود النص القرآني بين أيدينا، فما علينا إلا أن نخضعه لعملية التحليل والدراسة حسب أدواتنا المعرفية من قبل لجنة من العلماء المختصين ليقوموا بدراسته ومن ثم الحكم عليه بنزاهة وموضوعية مثله مثل أية مسألة علمية.

﴿ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴾ .

نقاش بعض الشبهات المتعلقة بحفظ النص القرآني

إن وضع الحقيقة العلمية وراء ظهورنا والتظاهر بموقف الغفلة وعدم المعرفة لها والجري خلف الأوهام والظن موقف غير علمي وغير موضوعي. إنه موقف متحامل، موقف من يريد أن يضع السم في العسل بقصد تشويه الحقيقة. وللأسف تحقق ذلك في كثير من الباحثين سابقاً فقاموا بتتبع الشبهات والدسائس التي وضعها أسلافهم وعدّوها أخبار ثقة وصحيحة وانطلقوا منها يصولون ويجولون في إثبات تحريف النص القرآني وضمنوا ذلك بكتبهم ودراساتهم ولعل أشهرها كتاب [فصل الخطاب في إثبات تحريف كتاب رب الأرباب] لمؤلفه(النوري) وهو شيعي المذهب وقد قام بالرد عليه كبار الشيعة في زمانه ونفوا أن يكون هذا معتقد الشيعة بالنسبة

للنص القرآني وأظهروا بطلان هذا الكتاب وشذوذ مؤلفه بمعتقده[1].

وهذا الدس والتحامل لم ينج منه أهل السنة في مصادرهم وكتبهم فتسربت مجموعة من الأخبار التي تنص على تحريف النص القرآني زيادة أو نقصاناً ولعل أكثر ذلك كان تحت باب الناسخ والمنسوخ وبقيت هذه الروايات في مصادر أهل السنة إلى يومنا المعاصر وكذلك في معظم كتب علوم القرآن المؤلفة قديماً ولا يزيد الباحثون المعاصرون عن نقلها في كتبهم أو محاضراتهم والقيام بتبريرها مستخدمين ما أطلقوا عليه علم الناسخ والمنسوخ، وفاتهم أن هذا الموقف منهم هو إقرار بهذه الأخبار المدسوسة وفتح باب يصعب بل يستحيل إغلاقه لأنه في أصله قائم على الوهم، فمن يستطيع أن يناقش الوهم إثباتاً أو نفياً وتحقق ذلك بوهم موضوع الناسخ والمنسوخ للنص القرآني، فما هو عند قوم ناسخ هو عند الآخرين منسوخ، والعكس صحيح، واعتقدوا بنسخ نصوص من القرآن تلاوة مع بقاء الحكم، أو نسخ الحكم مع بقاء التلاوة للنص دون فائدة ترجى منه سوى التعبد، أو نسخ النص كاملاً حكماً وتلاوة.

وضربوا على ذلك أمثلة وهمية لم يستطيعوا فهمها بعقولهم فذهبوا إلى القول بنسخها غير ذكرهم لسور كاملة قد نسخت ورفعت من المخطوط، إلى غير ذلك من الترهات وذلك كله موجود في مصادر أهل السنة وسوف

---

[1] انظر على سبيل المثال (القرآن في الإسلام) للسيد محمد الطبطبائي دار الزهراء ط3. وكتاب (أصول الفقه) محمد رضا المظفر دار التعارف ط4. وكتاب (الشيعة والتصحيح) .د. موسى الموسوي.

يستخدمها كل من يريد الطعن في حفظ النص القرآني من منطلق (من فمهم ندينهم) وهذا ما حصل فعلاً إذ قام المستشرقون ومن حذا حذوهم من الباحثين العرب إلى ركوب هذه الموجة الوهمية وألزموا أهل السنة والشيعة بالاعتقاد الموجود بين أظهرهم وما ذكرته مصادرهم الثقافية في أن النص القرآني قد تعرض للتحريف والزيادة والنقصان سواء في عهد النبوة من النبي نفسه تحت مفهوم الناسخ والمنسوخ أو من بعده حسبما جاء في الروايات المدسوسة.

وذلك كله لإغفال الحقيقة العلمية والجري وراء الأوهام، فكان الأجدر بعلماء الأمة التمسك باليقين ورفض الظن والأوهام، واليقين هو أن النص القرآني قد تواتر رواية وحفظاً وتم الإجماع على توثيقه كتابةً في عهد أبي بكر واستمر ذلك إلى يومنا المعاصر لم ينقص منه أو يزيد أية كلمة ناهيك عن نص بكامله، وبناء على هذه الحقيقة يتم النقاش للروايات وما أطلق عليه علم الناسخ والمنسوخ، فنصل إلى أن كل هذه الأمور إنما هي من نسج القصاصين والدساسين بقصد الإساءة للنص القرآني وتشكيك عامة المسلمين فيه وخاصة جيل الشباب حديثي العهد بالثقافة.

ولنأخذ على سبيل المثال خبراً يُعزى إلى عمر بن الخطاب أنه قال:

[لولا أن يقول المسلمون زاد عمر في القرآن لأثبت آية الرجم فيه، فإنها مما نزل من القرآن في زمن النبي] .

وآية الرجم هي: (والشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة).

إن أول عمل يجب أن نتحقق منه هو: هل فعلاً ثبت بشكل قطعي نزول هذه الآية المزعومة في زمن النبي ؟! والجواب قطعاً لا، بدليل الخبر نفسه في جملة (أن يقول المسلمون زاد عمر في القرآن) ومن هم المسلمون في زمن عمر؟ لا شك أنهم مجتمع الصحابة مما يعني أن هذه الآية المزعومة نكرة لا يعرفها مجتمع الصحابة الذين عاصروا نزول الوحي وبالتالي فالآية المزعومة لم تُعرف في زمن النبوة ولم يقم أحد بكتابتها أو تلاوتها طوال عهد النبي وكذلك في عهد أبي بكر ولم تُذكر إلا كخبر آحاد أُسندت لبعض الصحابة الذي منهم عمر بن الخطاب لإعطائها مصداقية، وفعلاً نجح الدساسون في ذلك وانطلت الحيلة على المسلمين ودخلت في ثقافتهم الدينية. ولنناقش الموضوع من جانب آخر: وهو أن عمر بن الخطاب من الحفظة ومن كتبة الوحي وهو من اقترح على أبي بكر عملية جمع النص القرآني في الصحف وكون الأمر كذلك فالسؤال المطروح:

أ – لماذا لا توجد هذه الآية المزعومة محفوظة ومكتوبة في عهد النبوة وخاصة أن كل نص ينزل كان يُكتب مباشرة فور انتهاء نزوله؟

ب – لماذا لا توجد هذه الآية المزعومة في مصحف أبي بكر الذي أقره مجتمع الصحابة جميعاً وعمر منهم؟

ت – لماذا لم يقترح عمر إثبات هذه الآية المزعومة في عهد أبي بكر أثناء جمع النص القرآني ؟

ث – هل فعلاً عمر يخشى الناس في أمر من أمور الدين على درجة من

الأهمية والعظمة وهو مَنْ هو قوة في الحق؟ ولماذا لم يستعن بالصحابة الكبار المعاصرين له؟

ج – لماذا لم يثبت هذا النص المفقود في زمن عثمان عندما قام بنسخ مصحفه عن المصحف البكري ويتلافى النقص؟

كل هذه الإشكاليات وغيرها تدفعنا إلى أن نقطع بكذب هذه الرواية على لسان عمر والذين وضعوها على لسانه هم اليهود بشكل مباشر أو غير مباشر لأن من المعلوم أن الرجم للزاني المحصن هو حكم توراتي قد نسخه القرآن. وكون الأمر كذلك فلا يصلح هذا الخبر للنقاش أو تبريره بالقول بالناسخ والمنسوخ، فالخبر ابتداء ظني ونجزم نحن بوضعه ودسه في الثقافة الإسلامية، فكيف نناقش موضوع نسخه من القرآن تلاوة مع بقاء حكمه ولم يثبت نزوله كنص قرآني أصلاً ؟! ناهيك عن ثبوت وضعه ودسه في الثقافة الإسلامية من جراء الأخذ عن التوراة في التفسير وغيره.

ومثال آخر على ذلك هو ما يُروى أن عبد الله بن مسعود قد اعترض على عمل عثمان في توحيد القراءات، وأن مصحف عبد الله بن مسعود لا توجد به المعوذتان ظناً منه أنهما ليستا من النص القرآني، وإنما هما بمثابة أدعية وتعاويذ.

وعلى افتراض صحة هذه الرواية عن عبد الله بن مسعود نناقشها حسب معطياتها والحيثيات التي لازمت هذه الرواية من أحداث.

أما اعتراض عبد الله بن مسعود على عمل عثمان من توحيد التلاوات

فمردود لظهور موقفه الشخصي تجاه عثمان لأنه لم يختره ويعينه ضمن لجنة نسخ المصاحف وصرح بذلك علناً فقال: (كيف أُستبعد من ذلك ويُقَدَّمُ زيد بن ثابت، وأنا قد دخلت بالإسلام قبله بل كان هو في صلب أبيه لم يأت إلى الحياة).

وهذا الاعتراض من عبد الله مرفوض كما ذكرنا لأن الأمر لا يتعلق بالأسبقية للإسلام ولو كان الأمر كذلك لكان هناك من هو أولى مَنْ عبد الله نفسه نحو الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، فالأمر متعلق بالأهلية والكفاءة وقد اجتمع ذلك في زيد بن ثابت وهذا الأمر لا علاقة له بالأفضلية والمكانة، وإنما له علاقة بطبيعة العمل المقصود قيامه فالرجل المناسب لهذه المهمة هو زيد بن ثابت وهذا ليس اختيار عثمان فحسب وإنما هو اختيار أبي بكر من قبله عندما جمع النص القرآني بالصحف، فضلاً عن أن الصحف بخطه إضافة إلى أنه من الحفظة ومن أحد كتبة الوحي والجامعين للنص القرآني، كل ذلك جعل عثمان يختاره من بين الصحابة لعلمه أنه أكفأ رجل للقيام بهذه المهمة كما أنه لم يفرده وحده بل أضاف له عدداً من الصحابة ليشاركوه مهمته ولكن بإشرافه وتوجيهه كونه الخبير بالنص القرآني .

فمن هذا الوجه لا قيمة لاعتراض عبد الله بن مسعود من الناحية العلمية، وبالتالي من القبح والشناعة أن يوظف هذا الموقف الشخصي من عبد الله وتُبنى عليه أوهام وأباطيل وجهاً لوجه مع الحقيقة.

أما ما يروى أن نسخة المصحف الخاصة بعبد الله بن مسعود لا تنص على وجود المعوذتين وهو ينفي عنهما صفة القرآنية، فهذا إن صح عنه فليس إلا خبر آحاد مقابل التواتر للمعوذتين رواية وتوثيقهما كتابة من قبل مجتمع الصحابة ابتداء من نسخة النبوة إلى مصحف أبي بكر واستمر ذلك في عهد عمر إلى فترة استلام عثمان، والسؤال الذي يفرض نفسه لماذا لم يصرح عبد الله ويعلن الحرب على نسخة النبوة ومصحف أبي بكر وإقرار وإجماع مجتمع الصحابة على توثيق أبي بكر للنص القرآني كتابة ومن ثم تصديق دولة عمر لعمل أبي بكر؟

وهذا يدل على عملية دس هذا الخبر على عبد الله بن مسعود لأنه إن كان لم يسمع من النبي أن المعوذتين من النص القرآني – وقطعاً قد سمع ذلك لأن المعوذتين نزلتا في مكة وعبد الله بن مسعود من المهاجرين السابقين في الإسلام – فإنه قد سمع ذلك من تواتر الصحابة لهما، فكان من الطبيعي أن يأخذ بالتواتر ويقول بأنهما من النص القرآني ويترك رأيه منفرداً لتواتر الأمر في مجتمع الصحابة.

وإذا افترضنا أن عبد الله بن مسعود لم يتراجع عن رأيه بالنسبة للمعوذتين مقابل النقل المتواتر من مجتمع الصحابة لهما، يكون موقفه متطرفاً لا قيمة له من الناحية العلمية.

ولذلك نجد الصحابة لم يلتفتوا إليه ولم يعيروه أي انتباه لعلمهم أن رأيه مبني على الاعتداد والانفراد بالرأي وبالتالي أهملوه وأجبروه على حرق

نسخته الخاصة من المصحف وسواء فعل ذلك أم لا فالأمر أخذ صفة الرأي الشخصي له.

وبناء على ما تقدم كيف يصح الاعتماد على هذه الرواية المسعودية تجاه التواتر المحفوظ في الصدور والموثق في السطور؟ إلا إذا كان الباحث يريد أن يثبت شيئاً في نفسه!.

هذه بعض النماذج التي اعتُمِدَت لدى من يحاول أن يثبت اختراق النص القرآني خلال التاريخ وهي نفسها قد اعتمدها المستشرقون حديثاً وتبعهم في ذلك بعض الباحثين العرب.

أما النماذج الأخرى التي يسوقونها للاستدلال بها فهي أضعف من خيوط العنكبوت فكلها دسائس وافتراءات على الثقافة الإسلامية لا تنهض للوقوف مقابل الحقيقة العلمية من أن النص القرآني محفوظ في الصدور وموثق في السطور بشكل متواتر منذ عهد النبوة إلى زمننا المعاصر. وبالتالي لا يُلتَفَتُ إليها ولا يصح تبريرها أو دراستها طالما أنها أخبار باطلة غير يقينية، واليقين لا يزول إلا بيقين مثله، فالظن لا يرفع اليقين، والحق أحق أن يتبع ولو كانت الروايات الظنية موجودة في معظم أمهات الحديث والتفسير عند أهل السنة والشيعة فالحقيقة لا تتأثر بذلك ولا يصح البحث بهذا الشكل، أي ترك اليقين والسعي خلف الشبهات والإشكاليات للوصول من خلالها إلى نقض اليقين. فالمطلوب هو إثبات يقين صحة النص القرآني متناً منذ بدء نزوله إلى يومنا المعاصر، فإذا تم ذلك للباحث

لا يطلب منه علاج وتبرير كل الإشكاليات والترهات فإن ذلك يستحيل في الواقع لاختلاف أمزجة الناس وتفاوت ثقافتهم فما يقنع به فلان لا يقنع به آخر ويبقى الأمر متروكاً للموقف الشخصي.

مع العلم أن نص (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة) باطل من حيث المتن لنظام اللسان العربي، مثل :

- المرأة الكبيرة في السن اسمها عجوز وليست شيخة.

{قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجوزٌ وَهَـذَا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هَـذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ }هود72

- كلمة (إذا) تفيد حتمية حصول ما بعدها، مثل {إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ }النصر1، وكان ينبغي أن يأتي في النص كلمة (إن زنيا) لاحتمالية وقوع الزنا أو عدم وقوعه.

وواضح أن الذي افترى النص قلّد نص {وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا جَزَاء بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ }المائدة38

توثيق النص القرآني
من
التاريخية إلى الواقعية

إن كلّ ما مرَّ ذكره مما يتعلق بتواتر رواية النص القرآني حفظاً وكتابةً لا يفيد الباحث سوى أن هذا النص القرآني قد صحت نسبته إلى محمد بن عبد الله دون زيادة أو نقصان وهذا أمر لا علاقة له البتة بموضوع نسبة النص القرآني إلى الله عز وجل فهذه مسألة أخرى لا علاقة لها بموضوع السند والرواية والتواتر، فلم تكن مسألة صحة نسبة القرآن إلى محمد في زمنه محل خلاف أو نقاش من قومه لأن ذلك ليس هو بيت القصيد ناهيك عن معرفتهم لهذه المسألة من جراء التعايش والمعاصرة له، ورغم حصول تلك المعرفة اليقينية جرى الصراع على أشده بين النبي محمد وقومه ولم يكن الصراع إلا على ادعاء النبي محمد أن النص القرآني إنما هو وحي من الخالق المدبر لعباده وهذه المسألة لا علاقة لها بموضوع صدق وأمانة النبي محمد المعروف بهما من قبل أن يصبح نبياً، ولو أن ذلك شرط لابد منه لمن يدعي النبوة الإلهية، لأن الصدق شيء وصحة الخبر شيء آخر، فصحة الرسالة تدل على صدق الرسول بينما صدق الرسول لا يدل على صحة الرسالة، فصفة الصدق في المخبر ليست هي دليلاً على صحة خبره، فصحة الخبر مسألة أخرى بحاجة إلى برهان يقوم على صحتها وبناء على

ذلك يكون الإنسان المعاصر للنبي الذي سمع الخبر منه مباشرة والإنسان بعد ألف سنة الذي تواتر عنده أن النبي قد أخبر بذلك النص في موقف واحد بالنسبة لعلمهما بصحة نسبة هذا الخبر إلى النبي، والعلم بصحة السند لا علاقة له بصحة المتن، وبالتالي فموقف الإنسان الذي سمع من النبي مباشرة وموقف الإنسان المعاصر الذي تواتر عنده الخبر عن النبي بالنسبة للإيمان بصحة الخبر كمتن أيضاً واحد، فعامل الزمن مهما طال لا علاقة له بموضوع الإيمان بمصدرية النص القرآني، لأن ذلك الإيمان لم يتأت من صدق المخبر أو تواتر الرواية عنه وإنما يتأتى الإيمان بصحة الخبر كمتن من جراء تطابق دلالة الخبر مع مدلوله من الواقع وهذا الأمر ضمن إمكانية الإنسان المعاصر للنبي والإنسان الذي يأتي بعد ألف سنة والنص القرآني هو نص موجود في الزمن المعاصر، وكون الأمر كذلك فمن السذاجة على درجة كبيرة إهمال النص المعني بالدراسة والدخول في متاهة التاريخ والرواة لمعرفة صحة نسبة هذا النص للذي صدر منه أولاً، فالموضوع ليس هو أن هذا النص تكلم به زيد أو عمرو حتى نرجع إلى التراث ونعرف صحة ذلك عنهم، وإنما الموضوع هو صحة الخبر نفسه كمتن ومصداقية ومصدرية ربانية، وهذا لا علاقة له البتة بتاريخ رواية النص وملابساته وإشكالياته التي تعرض لها أثناء النقل.

فموقف الإيمان أو الكفر يكون وجهاً لوجه مع النص ذاته كمتن لا يؤثر السند بذلك الموقف لا من قريب ولا من بعيد، ومثل ذلك كمثل

الرسول والرسالة التي يحملها فالأهمية للرسالة وليس للرسول كما أن الرسالة هي محل للدراسة والتدبر لما فيها وليس صفات الرسول والرواة، كما أن مصداقية الرسالة من ذاتها بالمضمون الذي تحمله وليس من الرسول، لأن الرسالة ممكن أن يحملها عشرات الناس بل مئات حتى تصل إلى المرسَل إليه، فلا يقوم المرسَل إليه بإهمال الرسالة والجري خلف السعاة الذين قاموا بتوصيل الرسالة ليتأكد من صفاتهم وصدقهم! ولو فعل ذلك لاتُّهِمَ بعقله لأنه من الواجب أن يتأكد من الرسالة نفسها ذاتها وذلك من خلال صواب المحتوى الذي تضمنته، وعندما يتأكد من صواب مضمون الرسالة لا يهمه السعاة صادقين كانوا أم كاذبين، لأن صفتهم تلك لا تؤثر على حكمه على الرسالة، فهم ليسوا برهاناً على صواب ومصداقية مضمون الرسالة كمحتوى.

ورسالة الله عز وجل قد وصلت إلى عباده وبدأ ذلك في زمن النبي محمد فقام بتلاوتها على الناس في زمانه ووقف الناس منها موقف الإيمان والكفر، وقام النبي بالتفاعل معها لإسقاطها على واقعه وقد نجح في ذلك نجاحاً منقطع النظير وصدَّق قومه بمصدرية الرسالة الربانية فآمن قسم منهم ، وكفر آخر بمبررات مكشوفة نحو أن القرآن يتعلمه النبي من رجل نصراني وغير ذلك من الأباطيل، وكل ذلك لنفي المصدرية الربانية عن القرآن بعد قيام الحجة والبرهان على ذلك وشهودهم لهذه العملية، وما أشبه اليوم بالأمس فقد قام المستشرقون ومن تبعهم من العرب بوضع إشكاليات

مستغلين التراث الثقافي لتغطية الحقيقة ونفي مصدرية القرآن الربانية وصلاحيته لكل زمان ومكان، فتارة يقولون بوقوع التحريف في النص القرآني عبر الزمان، وتارة يقولون إنه من صياغة النبي محمد، وغير ذلك من المبررات المكشوفة التي تهدف في النهاية لإنكار أن القرآن رسالة الله الكاملة والمحكمة – العالمية والإنسانية والدائمة – إلى خلقه.

وعندما توفي النبي انتهت مهمته كنبي يقوم بالتعليم والدعوة إلى رسالة الله، وبقيت الرسالة موجودة في الأمة حتى وصلت إلينا، ومطلوب منا نحن كمجتمع معاصر أن نتخذ موقفاً من الرسالة والتأكد من صواب مضمونها ونسبتها إلى الرب سبحانه وتعالى، ولا علاقة لمحمد بن عبد الله كنبي ورسول في ذلك الموقف، لأن نبوته لقومه قد انتهت بموته، وذلك لأن مقام النبوة مقام علم ومعرفة ووظيفته التفاعل مع الرسالة والواقع الذي يعيشه وقد حصل ذلك وانتهى بموت النبي وقومه، ولا وجود الآن للنبي حتى يتفاعل مع الرسالة حسب واقعنا وإنما الموجود هم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء بالعلم والمعرفة والاستقامة فيقومون بالتفاعل كل حسب اختصاصه مع الرسالة والواقع الذي يخصهم، ولهم في تحقيق ذلك المقام طريقان:

الأول: دراسة سيرة النبي وسنته في التفاعل مع الرسالة وواقعه لاستخراج الأسس والمنطلقات التي اعتمد عليها في فهم الرسالة وكيفية إسقاط ذلك على واقعه فيقومون باستخدام الأسس والمنطلقات كمنهج في التعامل مع الرسالة ودراسة واقعهم ومن ثم اختيار الحل الأحسن لهم.

الثاني: دراسة الرسالة مباشرة كونها مصدراً لعلوم النبوة أصلاً فلقد كان النبي الترجمان للقرآن بمنهجه، فالنتيجة واحدة فمن درس سنة وسيرة النبي يصل إلى منهج القرآن ومن درس القرآن مباشرة فإنه يصل إلى سنة النبي وسيرته. وعلى الحالتين يصل إلى المنهج في التعامل مع رسالة الله. والأصوب هو دراسة القرآن مباشرة لوجوده بين أظهرنا بشكل سليم وصواب والخروج منه بمنهج للتعامل مع الرسالة الذي ليس هو في النهاية إلا منهج النبوة (الحكمة) وذلك كبديل عن الدخول في التراث والتعرض لإشكاليات وأحداث سياسية يصعب استخلاص منهج النبوة منها. [1]

أما وظيفة النبي كرسول فلقد أدى المهمة على أكمل وجه وبلغ الرسالة كاملة كما نزلت بالتمام والكمال، وطبيعة الرسالة هي التي حددت دور النبي ودور الرسول. إذ جعلت المقام الأول: مقام علم ومعرفة وتعليم ودعوة موجهاً إلى المجتمع الإنساني المعاصر له.

والمقام الثاني: جعلته عالمي الدعوة إلى المجتمعات الإنسانية كافة عبر الزمان والمكان وتحقق ذلك باستمرار الرسالة وديمومتها.

إذاً المطلوب منا نحن المجتمع المعاصر التأكد من صواب الرسالة كمضمون ومصدرية كوننا معنيين بالخطاب، فإن تم ذلك لنا ننتقل إلى مرحلة الإيمان بها والتفاعل معها دون النظر للتراث وإشكالياته، وإن ثبت لدينا أن الرسالة باطلة في موضوعها مفتراة في مصدريتها يكون قد كفى الله

---

[1] راجع كتابي تحرير العقل من النقل وقراءة نقدية لمجموعة من أحاديث البخاري ومسلم .

المؤمنين القتال، فما لنا وللدخول في التراث وعدم الخروج منه ولا نحصل من ذلك إلا على الضياع والسجال الإيديولوجي.

وأخيراً نكون قد وصلنا إلى أن إدراك مصداقية القرآن إنما هو بالواقع كآفاق وأنفس وليس بالتراث كرواية وسند، فطريقة الرواية والتواتر للنص القرآني قد أخذت حقها من التوثيق خلال الأجيال الماضية ووصلت في زمننا إلى أعلى درجات التوثيق التاريخي وانتهى ذلك عندنا لوصول النص القرآني لدرجة الحقيقة التاريخية وأصبح من المسلمات. وكما ذكرنا سابقاً إن التوثيق التاريخي لا علاقة له بمضمون الإيمان بمصدرية النص القرآني.

ولذا يجب بدء عهد جديد من التوثيق يتعلق بالنص القرآني كمحتوى ومضمون وذلك بجعل الواقع آفاق وأنفس يشهدان على صوابه وبالتالي فهو من عند الله عز وجل ومن هذا المنطلق يجب على العلماء أن يتعاملوا مع النص القرآني كنص حي مستمر في العطاء المعرفي ويهدي للتي هي أقوم للمجتمعات الإنسانية، وهو نور نرى من خلاله، وهداية لنا وإرشاد، فيجب دراسة كل موضوع قرآني على حدة؛ نحو موضوع خلق الإنسان فيقوم العلماء بإخراج الآيات المتعلقة بذلك وترتيبها حسب منظومة علمية، ويقومون بعملية إسقاطها على الواقع من جراء السير في الأرض والاستفادة من النتائج التي وصل إليها العلم سواء أكانت قطعية أم ظنية، فالقطعي من العلم ينسجم ويتطابق مع النص القرآني ضرورة علمية وإيمانية، والظني منه يؤخذ كمحاولة لفهم النص والدخول في فضائه والنتيجة أننا سوف

نلاحظ أن العلم يشهد بصواب دلالة هذا النص، كما أنه يقر بعجزه وضعفه أمام ساحة فضاء دلالات النص القرآني، وبالتالي يستمر العلم في رحلته الطويلة من الشك إلى اليقين ومن الظني إلى القطعي يضيف شهادة تلو شهادة على صواب مصداقية النص القرآني وأنه رباني المصدر.

وهكذا في كل المواضيع التي تناولها القرآن، فالتطابق والصلاحية صفتان لازمتان للنص القرآني على صعيد الآفاق والأنفس لا فرق بينهما، فالتشريع الذي جاء به النص القرآني هو الأقوم والأصلح ولا مفر للمجتمعات الإنسانية إن أرادت الفلاح والرشاد من الأخذ به سواء آمنوا بمصدريته الربانية أم لم يؤمنوا، فالأنفع والأحسن هو الذي يدوم ويمكث في الأرض ويفرض ذاته بذاته على المجتمعات الإنسانية دون قوة وإرهاب وليس ذلك إلا من جراء انسجامه مع فطرة الناس وحاجتهم . لذا فإن عملية نقاش صواب النص القرآني لا تكون من التراث وإشكالياته، وإنما تكون من خلال دراسته وتدبره، فإن كان فعلاً هو الأصلح والأقوم والأنفع والأحسن وخبره متطابق مع محل الخبر من الواقع فلا شك أن هذا النص نص صالح نافع صادق في مصدريته الربانية ولا يهم صفة الرواة له لأنهم مجرد رسل قاموا بتوصيل النص إلينا.

وإذا استمر عمل العلماء على هذا النمط فإن مصداقية النص القرآني ومصدريته الربانية سوف تدخل إلى دائرة التوثيق له من قبل المؤسسات والمراكز العلمية للمجتمعات الإنسانية كافة، ويصير الكفر بالنص القرآني

موقفاً غير علمي كموقف الذي ينكر كروية الأرض أو دورانها حول الشمس، فهو موقف إجرامي جاحد لا يريد صاحبه للمجتمعات الإنسانية تحقيق العدل والسلام والمحبة والأمان والحرية للإنسان لأن ذلك لا ولن يتم إلا بالإيمان بالخالق المدبر رباً أحداً صمداً، وباليوم الآخر كبعث ومسؤولية[1] والالتزام بما أنزل الله من رسالة كاملة كأسس ومنطلقات وحدود لحركة الإنسان كفرد ومجتمع ليحقق وظيفته في الأرض التي منحها الله له وهي مقام الخلافة.

الثالث: القرآن الكريم آية النبي محمد الخالدة، فلقد جاءت كل آيات الأنبياء قبل محمد مادية بحيث أن عالم المحسوس {الظاهرة الطبيعية للآية} سبق عالم المعقول إمّا بفترة زمنية قصيرة، أو فترة زمنية طويلة الأمد. وذلك لأن الإنسان في مراحل تطوره كان عالم المحسوس المباشر عنده أهم من عالم المعقولات أي أن المحسوسات سبقت المجردات المعقولات. وهذا هو التطور الطبيعي التاريخي للمعرفة الإنسانية لأن المعرفة الإنسانية تبدأ بالإدراك الفؤادي المشخص بحاستي السمع والبصر، ثم تنتقل إلى المجردات. أما بالنسبة للنبي ﷺفقد كانت آية نبوته هي القرآن ذاته أي أن القرآن هو التصديق، وهو النبوة معاً، ولم تأته النبوة والآيات البينات منفصلاً بعضها عن بعض كما كانت بالنسبة لكل الأنبياء، النبوة والآيات البينات منفصلاً بعضها عن بعض.

---

[1] راجع كتابي الألوهية والحاكمية فصل اليوم الآخر ضرورة اجتماعية أخلاقية.

لقد شكل القرآن من الكتاب معظمه، وبما أن محمد خاتم النبيين فيجب أن تبقى آيته خالدة، وكلما تقدمت الإنسانية في المعارف والعلوم يظهر صواب وأحقية القرآن بشكل واضح، فكانت آيته معاكسة تماماً لآيات بقية الأنبياء، وذلك لأن:

1- نبوة محمد التي هي القرآن وسبق فيه الطرح المعقول عن المدرك من المحسوس بصياغة متشابهة. فكلما تقدم الزمن تدخل طروحات القرآن ضمن المحسوسات المدركة، وهذا ما يسمى بالتأويل المباشر {أي مطابقة المدرك من المحسوس مع النص}.

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (فصلت 53).

﴿ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ (الأنعام67) .

﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ (يونس 39) .

وهذا هو السبب الثاني في أنه سمي قرآناً من القراءة حيث أن السبب الأول هو المقارنة وهو قرن أحداث الطبيعة بأحداث التاريخ، وقراءتها لمعرفة القوانين التي تحكمها.

لقد قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَـٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأنبياء30) .

وعرفنا الآن أن في الكون كله لا يمكن أن يوجد مظهر من مظاهر الحياة

دون وجـود المـاء {الرطوبـة} وقـال: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (الأنبياء 33) .

والفلك في اللسان العربي هو الاستدارة كقولنا «فلك ثديا الفتاة» أي استدارا، فكل شيء في هذا الكون من أصغر الجزيئات إلى أكبرها يتحرك ضمن أفلاك أي حركة غير مستقيمة {منحنية}. هذا ما عرفناه الآن ووصفه القرآن قبل أربعة عشر قرناً في عالم المعقولات، والآن أصبح في عالم المحسوسات والمعقولات معاً. ثم إنه قال:

﴿ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (الذاريات 49) وقال: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (ياسين36) .

لقد قال القرآن منذ أربعة عشر قرناً ووضع في عالم المعقولات إن هذا الكون قائم كله على الأزواج } قانون الزوجية { في كل شيء مطلقاً، في الذي نعرفه والذي لا نعرفه، وقد حذرنا من أن ننسى هذه الحقيقة:

﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ ثم إنه وضع لنا في عالم المعقولات قوانين جدل المتناقضات والأزواج والأضداد. ولهذا سميت آيات النبوة قرآناً من الاستقراء، فمن القرآن نستقرئ النظريات العلمية المادية والتاريخية بالإضافة إلى أنه قرن الحقيقة الموضوعية المادية مع الحقيقة التاريخية. والآن أريد أن أوجه سؤالاً: هل هذا الكلام هو من أساطير الأولين أو من أساطير الآخرين؟

قد يقول قائل: إن السادة المفسرين وعلماء المسلمين لم يشرحوه هكذا وأقول: هنا يظهر الوجه الثاني من إحكام القرآن هو:

2- لقد حوى القرآن الحقيقة المطلقة للوجود بحيث تفهم فهماً نسبياً حسب الأرضية المعرفية للعصر الذي يُحاول فهم القرآن فيه. فهو قد حوى الحقيقة المطلقة والفهم النسبي لهذه الحقيقة بآن واحد، وهذا لا يمكن لإنسان أياً كان أن يفعله. فالمطلق عبر عنه مادياً في الصيغة اللسانية المحدثة (الذكر) ،والنسبي جاء في المحتوى المتحرك في التأويل وهذا ما نسميه بخاصية التشابه. فإذا أردنا أن نعرف الأرضية المعرفية للعصر الذي عاش فيه ابن كثير فما علينا إلا أن نقرأ تفسيره وإذا أردنا أن نعرف الأرضية المعرفية لعصر الصحابة فما علينا إلا أن نتبع تفسيراتهم وعلى رأسهم ابن عباس. فتفسير ابن كثير وغيره يحمل المعرفة النسبية لفهم القرآن لا المعرفة المطلقة، وهذا هو سر الإحكام الأكبر في القرآن وهو (التشابه).

3- أمّا الوجه الثالث من أوجه الإحكام فهو أننا نعلم الآن أن هناك نوعين من الصياغة اللسانية هما الصياغة العلمية الموضوعية كصياغة إسحاق نيوتن وألبرت أنشتاين وابن الهيثم لنظرياتهم، وهناك الصياغة الأدبية الخطابية والشعرية الغنية بالصور الفنية كصياغة شكسبير وبوشكين والمتنبي. والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو: هل يمكن صياغة نظريات نيوتن وأنشتاين وابن سينا وابن الهيثم صياغة كصياغة المتنبي وبوشكين وشكسبير دون أن تؤثر هذه الصياغة على الدقة العلمية ودون أن تكون

على حسابها؟ إلى يومنا هذا لم نر هذا النوع من الصياغة وهذا هو الوجه الثالث من الإحكام. .....والقرآن ذاته يقول: إنه لو كان المقصود بالإحكام الصياغة فقط دون المضمون لأمكن للناس صياغة بعض القطع الأدبية التي تشبه القرآن من الناحية الصنعية فقط وهذا ما جاء في قوله :﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ (هود 13)

في هذه الآية جاء النوع الأول من التحدي وهو أن يكون الموضوع غير قرآني والصياغة قرآنية. وهذا ما سماه بالافتراء، ففي هذه الحالة طلب عشر سور ووضع الإحكام فيها فيمكن أن نستنتج بالضرورة أن المفتري يمكنه أن يأتي بأقل من عشر سور. فهل هذا الإعجاز واقع على العرب وحدهم أو عليهم وعلى غيرهم؟ الجواب: على العرب وعلى غيرهم من الأقوام لأن المطلوب هو الافتراء من الناس، كلٌّ في لغته، العربي بالعربية والفارسي بالفارسية والإنكليزي بالإنكليزية وهكذا دواليك. فالمطلوب بالضبط هو أن يؤخذ موضوع غير قرآني مفترى. مثال على ذلك قصة حب بين رجل وامرأة أو قانون علمي موضوعي كقانون الجاذبية، وتصاغ هذه القصة أو القانون بشكل قرآني أي أنها يجب أن تحتوي على الشروط التالية:

1- أن تحوي على القوانين المطلقة للحب بشكل يفهمها كل قارئ حسب وعيه ومداركه عن الحب أي أن تحتوي على علاقة جدلية بين المطلق والنسبي.

2- أن تكون فيها المعقولات عن الحب تسبق المحسوسات {أي الإخبار عن الحب سبق معلومات الناس عنه}.

3- أن تصاغ صياغة فنية رفيعة.

هذه الشروط الثلاثة وبشكل خاص الشرطان الأول والثاني هي التي تسمح بالتأويل. هذه الخاصة نراها جزئياً عند عمالقة الأدب في العالم وليس العلم من أمثال دوستويوفسكي وشكسبير والمتنبي حيث أنه على مر الأيام تعاد قراءة هؤلاء الأدباء في ضوء معطيات العصر. وقد يقول قائل:

إنه أمكن لهؤلاء تقليد القرآن بشكل افتراء.

أقول غير صحيح للأسباب التالية :

لقد طلب في حالة الافتراء عشر سور، فإذا افترضنا أن السورة مؤلفة من ثلاث آيات فقط حيث أن أصغر سورة في القرآن مؤلفة من ثلاث آيات فقط، وحيث أن الآية قد تحوي وحدة المعنى، فهذا يعني أن المطلوب هو ثلاثون موضوعاً مفترى، وأن تصاغ صياغة قرآنية على شكل آيات تحتوي الشروط المذكورة أعلاه. فمثلاً أحد المواضيع يمكن أن يكون في تاريخ مدينة دمشق، يصاغ بشكل مطلق لمدينة دمشق، بحيث إذا قرأه إنسان يراه مطابقاً لمستوى معلوماته التاريخية عن دمشق وإذا قرأه إنسان بعد خمسين عاماً يراه مطابقاً وهكذا. «هذا مثال عن القصص والتشابه فيه»هذا ينتج عنه الضرورة المعقول قبل المحسوس وهو الذي نسميه بالغيبيات. هذا النوع الأول من الإعجاز الذي طلب فيه عشر سور

مفتريات تحتوي على نص على شكل آيات.

والآية كما جاءت في الكتاب لها معنيان منفصلان:

المعنى الأول: الآية في المصحف هي النص اللساني كمبنى المتعلق بالبينات والأخبار والكونيات ولايشترط لها أن تكون بين فاصلتين فممكن أن تكون عدة جمل تشكل آية ،فالضابط لها هو تمام وكمال المعنى.

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِيَ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِ نَفْسِيَ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِنِّيَ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (يونس 15) .

وقوله :﴿ وَأَنْ أَتْلُوَاْ ٱلْقُرْءَانَ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾ (النمل 92).

وقوله :﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴾ (فاطر29).

وقوله : ﴿ الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾ (يوسف1).

المعنى الثاني: الآية بمعنى الظاهرة المادية في الطبيعة حيث أن ظواهر الطبيعة تسمى آيات الله وفي هذا المعنى جاءت في قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴾ (الإسراء101).

وقوله تعالى :﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا

لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَـٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (الأعراف 73).

وقولـــه:﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ (يوسف105).

وقوله: ﴿ وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَـٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾ (الأنبياء91).

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ (الروم 20).

المعنى الثالث: الاثنان معاً: الآيات التي تتلى والظواهر المادية وذلك في قولــه﴿ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴾ **(الجاثية 6).**

حيث كانت قبلها الآيات عن الليل والنهار وتصريف الرياح وخلق الإنسان. لذا فإن مقومات الآية القرآنية المراد تقليدها (الافتراء) هي:

1- ثبات الصيغة اللسانية.

2- حركة المحتوى بشكل يتناسب مع معقولات القارئ العالم وهذا ما يسمى بالتشابه .

3- أن يكون الموضوع غير تشريعي. حيث أن القرآن لا يحتوي على مواضيع تشريعية.

هذا فيما يتعلق بالسور العشر المفتريات. أما فيما يتعلق بالسورة الواحدة فجاء التحدي على شكلين: الشكل الأول في قوله :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ (يونس38).

المطلوب في هذا التحدي هو سورة واحدة فيها كل الشروط المذكورة أعلاه ، بحيث يكون الموضوع قرآنياً والصياغة قرآنية وموضوع القرآن هو القوانين المطلقة للطبيعة والتاريخ، فالمطلوب بهذا التحدي صياغة قوانين جدل الطبيعة وجدل التاريخ صياغة جدلية بحيث تُفهم هذه الصياغة حسب الأرضية المعرفية للعصر الذي تُقرأ فيه.

والشكل الثاني والذي جاء على شكل سورة واحدة هو في قوله تعالى :

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ (البقرة 23).

هذا النوع من التحدي يختلف عن النوع الأول حيث قال :

﴿ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ ﴾ . أما هنا فقال : ﴿ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾ . هنا يبين حقيقة التنزيل بقوله: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ ﴾ . وقد شرحت سابقاً معنى التنزيل بأنه نقلة خارج الوعي، والتنزيل بالنسبة للقرآن جاء بعد الإنزال أي أن الصيغة القرآنية صيغت عربية خارج وعي محمد ، وهذا هو الإنزال ثم جاء القرآن من خارج وعي محمد مصاغاً جاهزاً إلى وعيه عن طريق الوحي على مدى ثلاث وعشرين سنة، وهذا هو التنزيل. فهنا

جاءت الآية للذي يشك في التنزيل، وبما أن التنزيل جاء للكتاب ومن ضمنه القرآن وهو أكثر من سورة لذا قال : ﴿ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾ . فالذي يعتقد أن القرآن كان من محمد محتوى وصياغة فما عليه إلا أن يحاول أن يأتي من مثل هذا الذي يشك بأنه وحي مع التقيد بالشروط المذكورة سابقاً. لأن كل شيء من صنع الإنسان يمكن أن يتجاوز. وهنا لم يطلب التجاوز وإنما طلب المماثلة التي هي أقل من التجاوز.

أما التحدي الأكبر فهو اجتماع الإنس والجن قاطبة لغاية واحدة وهي الإتيان بمثل هذا القرآن. أي لو جند الإنس والجن علماءهم وأدباءهم ومعاهد أبحاثهم لهذه الغاية فقط فإنهم مع ذلك لا يستطيعون تحقيقها. إنه من الخطأ القول كما قال بعضهم: إنه تحدى العرب بالقرآن، فعندما عجزوا تحداهم بعشر سور، وعندما عجزوا تحداهم بسورة، والخطأ في ذلك أن كل آية من آيات التحدي تمثل نوعاً من التحدي مختلفاً عن الآخر. والتحدي في كل أنواعها لم يكن للعرب وحدهم وإنما كان للناس جميعاً.[1]

[1]– نقلاً عن كتاب د. "محمد شحرور" بتصرف – الكتاب والقرآن – قراءة معاصرة.

القرآن واللوح المحفوظ

و

العلاقة بينهما

إن مفهوم اللوح المحفوظ من المفاهيم التي أصابتها ضبابية كبيرة لدرجة خفاء هذا المفهوم في التراث وتفسيره بشكل غيبي مع ربط عالم الشهادة به بصورة ملفقة أدت إلى ظهور عقائد وهمية على درجة من الخطورة حيث صارت مع الزمن قاعدة مسلمة لدى المجتمعات اللاحقة التي بنت عقيدتها وفكرها عليها، ومن أهم تلك المفاهيم مفهوم الكتابة المسطورة لكل ما يحدث في هذا الوجود بأبعاده الثلاثة وذلك قبل وجودهم في الواقع بل قبل أن تتوجه إرادة الله عز وجل لفعل الخلق –كتابة أزلية – والمفهوم الآخر هو أن القرآن موجود قبل نزوله إلى النبي محمد ﷺ في اللوح المحفوظ، وكون اللوح المحفوظ أزلي حسب اعتقاد السلف اقتضى أزلية كل ما هو موجود فيه، وبالتالي فالقرآن أزلي من هذا الوجه!

وهذا الطرح التراثي الهزلي كان أحد الأسباب الذي دفع المستشرقين ومن اتبعهم إلى نقض النص القرآني والتشكيك بمصدريته الإلهية، والتشكيك بحفظ متنه عن التحريف سواء أكان ذلك من منطلق الدراسة الموضوعية أم من منطلق خبيث المقصد منه تشكيك المسلمين بمصداقية كتابهم ناهيك عن تشكيل حاجز إشكالي يمنع الناس من الإيمان به.

ولدراسة مفهوم اللوح المحفوظ يجب استبعاد الفهم السطحي والهزلي عنه أولاً، وفرز المفهوم التراثي ثانياً، وعدم التأثر بما هو سائد على ألسنة الناس من استخدامات لدلالة الكلمات لأن هذه الاستخدامات تخضع لعملية الحياة والموت حسب التطور والحاجة.

قال تعالى:

1 - ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ (البروج 21- 22).

2- ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾ (الزخرف 3 –4).

3 - ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴾ (الواقعة 77 – 78).

لاحظ علماء السلف أن حرف (في) يتكرر في النصوص الثلاثة:

[في لوح محفوظ] ، [في أم الكتاب]، [في كتاب مكنون].

ومن دلالة حرف (في) الظرفية وكون الكلام عن القرآن وهو النص المتلو بين أيدينا قالوا:

إن هذه الصفات الثلاث إنما هي لشيء واحد وهو اللوح المحفوظ، وأحاطوا اللوح المحفوظ بمفاهيم غيبية وأعطوه صفات لا تكون إلا للخالق المدبر نفسه نحو صفة الأزلية والإحصاء لكل ما كان ويكون وسيكون بشكل كتابة فيه، ولأن القرآن موجود في اللوح المحفوظ ظهرت إشكالية أزلية القرآن – كلام الله – قبل أن ينزل على محمد وجرى الصراع الثقافي بين التيارات الإسلامية حول مسألة خلق القرآن وأزليته.

والملاحظ أن مفهوم أزلية القرآن أو حدوثه في التراث قد انبنى على مفهوم صفة كلام الله والمفهوم التراثي للوح المحفوظ. إذاً المشكلة تكمن في التراث وطريقة تناول البحث، وهذا الإشكال كان السبب الرئيس لفتح باب الهجوم والطعن في صحة ومصداقية القرآن وصلاحيته لكل زمان ومكان.

فلذا اقتضى إعادة الدراسة لهذا المفهوم من جديد من خلال القرآن نفسه واللسان بأبعاده مع مراعاة عامل التاريخ وكل ذلك بمنهج علمي منطقي إمامه الواقع (آفاق وأنفس).

وإذا تم إغلاق هذا الباب الذي دخل منه الهراء والتهافت الفكري فقد بطبيعة الحال الطرح الإشكالي المتهافت قيمته العلمية لعدم جدواه في واقع الحال، وانتفاء المبرر له وإلغاء السبب يبطل المسبب حتماً.

قال تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (الزخرف 3)

والجعل هو تغير في الصيرورة وليس عملية خلق جديد للشيء ابتداء، انظر قوله تعالى :

1- ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ (البقرة 124).

وهذا خطاب للنبي إبراهيم وهو حي يرزق وكيف منحه الله عز وجل مقام الإمامة بعد أن لم يكن إماماً.

وانظر أيضاً:

2-﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ﴾ (السجدة24).
3-﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً ﴾ (المؤمنون50).
4-﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ﴾ (الحج 67).
5 -﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴾ (الصافات 77).
فقوله تعالى:﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

يدل بشكل واضح وصريح على وجود القرآن موضوعياً قبل جعله بصورته اللسانية، إذن للقرآن صورتان في واقع الحال:

الأولى: الوجود الموضوعي، الثانية: الوجود اللساني. وكلاهما قرآن في واقع الحال، وهذا الكلام يوصلنا بشكل مباشر لمعرفة وتفسير النصوص الثلاثة المذكورة سابقاً المتعلقة بالقرآن ولنبدأ بقوله تعالى:

﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ (الزخرف 3 - 4).

فالنص الأول كما ذكرنا من خلال تعريف عملية (الجعل) يدل على أن القرآن كان موجوداً بشكل موضوعي ومن ثم أضاف الله عز وجل لوجود القرآن موضوعياً صفة الوجود اللساني ليصير القرآن ذا بعدين الأول: وجود موضوعي، والآخر وجود لساني. وهذا يدل على أن القرآن بالبعد الموضوعي سابق في وجوده عن القرآن بالبعد اللساني كما أن القرآن اللساني لاحق للقرآن الموضوعي وهو صورة لسانية عن القرآن الموضوعي.

أمـا الـنص الثـاني ﴿ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ فـالكلام عــن القــرآن اللـساني المجعـول عـن القـرآن الموضـوعي يخبرنـا الله عزوجـل أن هـذا القـرآن المجعـول هـو مـن حيـث المعـنى والمقـصد والجـوهر والحقيقـة موجـود في أم الكتاب، فماذا تعني أم الكتاب؟

الأم لساناً: هي الأصل والمرجع للشيء. ومن ذلك نقول عن الوالدة أم لأنها أصل لأولادها وكذلك نقول عن الرجل إمام إذا كان في مقام القيادة والتوجيه للنـاس وهـم متبعـون لـه في سـلوكهم وأفكـارهم ويرجعـون لـه بكـل شيء.

فالنص يخبر أن القرآن اللساني موجود في أم الكتاب أي موجود من حيث الجوهر والموضوعية في أم الكتاب وذلك قبل جعله بصورة لسان، فإذا أردنا أن نعـرف هـذه (الأم) الـتي هـي أصـل ومرجـع للـصورة القرآنيـة اللغويـة فمـا علينا إلاَّ أن نسارع في قراءة النص القرآني ونرجعه إلى أصله (محل الخطاب من الواقع) لنصل في النهاية إلى أن أمَّ القرآن اللساني هي الآفاق والأنفس وذلك أشبه بالصورة الشمسية للإنسان من كونها عكساً ظلياً له، فإذا أردنا أن نعـرف صـاحب هـذه الـصورة (الأصـل لهـا) يجـب إسقاطها على الواقـع البـشري والقيـام بعمليـة الـسبر والتقـسيم بـين النـاس لمعرفـة صـاحب الـصورة الـذي هـو أصـل ومرجـع لهـا ويـتمتع بوجـود حقيقـي موضـوعي قابـل للدراسـة بخـلاف صـورته فإنهـا ليـست إلا صـورة ظليـة تقـوم بعمليـة الدلالـة والإرشـاد للأصل (الأم).

وهكذا النص القرآني هو صورة لسانية يدل على أصله ومرجعه (الآفاق والأنفس).

إذاً الآفاق والأنفس هما الكتاب المذكور في النص، وكلمة (أم الكتاب) يقصد بها الأصل والمرجع للآفاق والأنفس وهذا إشارة إلى القوانين الناظمة للوجود كله إذ هي أم له تشرف عليه ويسير بحسبها.

قال تعالى﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلاً ﴾ (الأحزاب 62).

﴿ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلاًۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلاً ﴾ (فاطر 43).

فهذه السنن الناظمة للوجود هي أم الآفاق والأنفس كونها أصلاً ومرجعية للكون الثابت والمتغير. فتصبح جملة

﴿ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ وصفاً وإخباراً من الله عز وجل بأن القرآن اللساني موجود من حيث الأصل والمرجعية في مجموعة السنن الناظمة للخلق التي هي أم الآفاق والأنفس حقيقة، وما القرآن اللساني إلا صورة لهذه الأم بشكل لساني حتى تكون قابلة للتلاوة والسماع.

وبعد معرفة تفسير (أم الكتاب) تسهل معرفة تفسير اللوح المحفوظ، والكتاب المكنون، فما هو اللوح المحفوظ؟

لوح: لساناً تدل على الظهور بشكل لامع. ومنه قولنا: لاح الشيء إذ ظهر بشكل لامع. فيكون المقصد من قوله تعالى:﴿ فِي لَوۡحٍ مَّحۡفُوظٍۭ ﴾ على الشكل التالي:

إن كلمة القرآن لم تحدد هنا بالقرآن المتلو (اللساني) مما يدل على أنها تتناول القرآن ببعديه الموضوعي واللساني فكلاهما في لوح محفوظ بمعنى أن الآفاق والأنفس هما اللوح الذي تمَّ فيه حفظ القرآن ببعديه وذلك من خلال القوانين الناظمة للخلق حيث جعلها الله دائمة ومستمرة غير قابلة للتبديل أو التحويل عن سيرها فمن يستطيع من الخلق أن يحرف آية الشمس في سيرها من المشرق إلى المغرب؟ قطعاً لا أحد يستطيع أن يفعل ذلك، بل لا يحاول أصلاً لإدراكه لعجزه وضعفه اللازم لوجوده، فهذا القرآن الموضوعي محفوظ في واقع الحال فجاءت صورته اللسانية مرتبطة به كونها إخباراً عنه فأخذت الحكم ذاته من حيث الحفظ، لأن أي تبديل أو تحريف في القرآن اللساني يظهر مخالفته بشكل واضح للقرآن الموضوعي وبالتالي يظهر كذبه وبطلانه وأن هذا النص اللساني ليس من عند الله الخالق المدبر ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ (النساء 82).

والكلام عن القرآن اللساني يخبر الله عز وجل أن هذا النص القرآني لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً ضرورة مع أصله ومرجعيته الذي هو القرآن الموضوعي (آفاق وأنفس) إذاً؛ التطابق بين النص

القرآني والقرآن الموضوعي شيء لازم ضرورة كونهما من مصدر واحد الذي هو الخالق المدبر:

﴿ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴾ (تبارك14).

ومن خلال هذا العرض بدأت الغشاوة تزول عن الأعين ويلوح الفهم للنص القرآني ولنرَ ذلك في قوله تعالى: ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٌ كَرِيمٌ فِي كِتَٰبٍ مَّكۡنُونٍ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴾ (الواقعة 75-79).

يقسم الله عز وجل بمواقع النجوم وليس بالنجوم نفسها، ويخبر أن هذه المواقع [الفواصل بين آيات الكتاب المتلو أو مواقع النجوم في السماء أو كلاهما] هي على درجة من العظمة والأهمية وبصرف النظر عن دلالة كلمة النجوم في الواقع فهذا بحث آخر لسنا في صدده يخبر الله عز وجل أن القرآن الكريم في عطائه المعرفي موجود في كتاب مكنون، وكوننا قد عرفنا مكان القرآن قبل جعله قرآناً عربياً أنه في أم الكتاب واللوح المحفوظ اللذين هما في واقع الحال الآفاق والأنفس والسنن الناظمة لهما مما يدل على أن جملة (في كتاب مكنون) يقصد بها مجموعة السنن الناظمة للكون، وكلمة (مكنون) تدل على الستر والصون مما يؤكد أن هذا القرآن اللساني مصان من أيدي العابثين المجرمين كونه موجوداً في أم الكتاب واللوح المحفوظ بصورته الأصلية الموضوعية المحفوظ بقوانينه المستورة، ويكمل الله عز وجل النص أنه لا يستطيع أحد أن يكشف هذه القوانين المستورة المحفوظة إلا

العلماء وهذا دلالة﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴾ لأن المس هو الجس للشيء، والطهارة: هي النقاء والصفاء. فالإنسان لا يستطيع أن يضع يده على القانون الإلهي في الواقع ويكشفه من ستره إلا إذا كان نقياً وصافياً في تفكيره ومنهجه العلمي والموضوعي من أية شوائب نحو الآبائية، والأكثرية، والخرافات.. ولذلك قال تعالى:

﴿ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَـٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾

(فاطر28).

وهذه نماذج من آيات الذكر الحكيم لتوسيع الفكرة وتوضيحها:

1- ﴿ يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَـٰبِ ﴾ (الرعد 39).

كلمة يمحو ويثبت فعل مضارع مما يدل على الحدوث في الحاضر والمستقبل، والنص القرآني نص مستمر في العطاء مما يدل على استمرار فعل المحو والإثبات وليس هو خاصاً لزمن دون آخر، وصفة المشيئة جاءت بصيغة (يشاء) كذلك فعل مضارع تدل على الاستمرار في الحدوث، ودلالة شاء هي للاحتمال والتخيير بخلاف صفة أراد فهي للقصد والعزم والتحديد لشيء بعينه مما يدل على أن فعل المحو والإثبات لم يتحدد بعد ويتعين في الواقع وإنما هو أمر مناط بمشيئة الله عز وجل وهذا محله القرآن الموضوعي (آفاق وأنفس) فهو محل لعملية المحو والإثبات حسب مشيئة الله وذلك مرتهن بكل أمر في حينه.

قال تعالى:

1 - ﴿ ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا ﴾ (الإسراء21).

2- ﴿ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗاۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ (الشورى 24).

أما أم الكتاب فالمقصود بها مجموعة السنن الكلية الناظمة للوجود فهي ليست بمحل للمحو والإثبات لأن الله عز وجل جعلها دائمة مستمرة ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ﴾ .

إذاً؛ المحو والإثبات هما للقوانين الجزئية الاحتمالية في الواقع التي لها أكثر من احتمال نحو نزول الأمطار في زمان ومكان معين، وإطالة عمر فلان أو تقصيره وما شابه ذلك من الأمور فكلها مرتهنة بمشيئة الله عز وجل ويقوم الإنسان بدفع أقدار الحق بالحق للوصول للحق - تدافع الأقدار ببعضها - دفع قدر المرض بقدر الصحة، وقدر الجهل بقدر العلم، وقدر التخلف بقدر النهضة.

﴿ كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ ﴾ (عبس 11- 16).

إن موضوع الإيمان بالله واليوم الآخر والانقياد لشرعه أمر تحت متناول أيدي الناس جميعاً ﴿ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن ﴾ وهذا الأمر - الإيمان -

موجود ومتوفر من خلال السير في الأرض ودراسة الحقيقة وهذا ما دل عليه جملة :﴿ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴾

لأن الصحف جمع صحيف وتطلق على وجه الأرض، أما جملة :

﴿ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴾

فهي الحقيقة الصافية النقية المرفوعة عن كل دنس أو شائبة أو تحيز لأحد، وجملة ﴿ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴾ المقصود بها بأيدي العلماء الذين يسفرون عن الحقيقة ويكشفونها للناس ويمارسون دور السفراء في الأرض لدعوة الناس إلى الحق والسلام والأمن والعدل والمحبة، وجملة ﴿ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾ صفة لهؤلاء العلماء الذين لا يبخلون بعلمهم على أحد ويقومون بأعمال البر والإحسان والتواصل مع الناس لنشر السعادة والمحبة في الجنس البشري.

3 - ﴿ ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴾ (الحجر 91).

إن كلمة (عضين) من التعضية وهي تدل على التفريق والتجزيء، وكلمة القرآن لم تحدد بالنص المتلو مما يؤكد على اشتمالها على الدلالتين: القرآن الموضوعي، والقرآن اللساني، ويكون المقصد من النص هو التحذير من التفريق بين بعدي القرآن: الموضوعي واللساني والمحكم والمتشابه فيهما أثناء الدراسة لأن هذه التعضية للقرآن عن بُعده الموضوعي تجعله نصاً لسانياً جامداً مفرغ المحتوى ليس له أي قيمة، كما أن الدراسة للقرآن الموضوعي دون بعده اللساني تصبح مادية لا روح فيها مخلدة إلى الأرض لا تسمو إلى السماء، كما أن الدراسة لكليهما اعتماداً على المتشابه دون المحكم يؤدي إلى الفتنة والضلال.

4 - ﴿ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾ (الفرقان 30).

إن كلمة القرآن في النص لم تحدد بدلالة لأحد البعدين مما يدل على أنها تشمل البعدين للقرآن معاً - الموضوعي واللساني - فكلاهما قرآن وعملية الهجر لم تكن للبعد اللساني وإنما كانت للبعد الموضوعي الذي هو أصل للبعد اللساني، وإذا تمَّ ذلك في الواقع فإن عملية الهجر تكون حاصلة للقرآن كون النص اللساني لا يمكن دراسته وفهمه دون إرجاعه إلى أصله الموضوعي، ومن هذا الوجه أطلق الله عليه اسم قرآن وهو من قرن الشيء بالآخر وضمه إليه قراءة وتدبراً، وليس هو إلا الجانب الموضوعي والآخر المتلو وكلاهما يشكلان القرآن ولا يستغني الإنسان عن أحدهما في دراسته ونهضته لتحقيق السعادة والفلاح في المجتمعات الإنسانية، ويكون ذلك من جراء ضم أحدهما للآخر والقيام بعملية القراءة لهما من خلال إسقاط النص على محل خطابه من الواقع لأن القراءة هي تفكر وتدبر للشيء سواء رافقه نص متلو أم لا.

5 - ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ (الحجر 9).

إن كلمة الذكر تطلق على ما أنزل الله عز وجل على نبيه بواسطة الوحي الذي شمل الكتاب كله قال تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴾ (الكهف 1).

فأطلقت كلمة الذكر على محتوى الكتاب كله لأنه قابل للذكر بشكل صياغة صوتية (تلاوة) مع وجود صفة التدبر والتذكر.

فيكون المقصد من حفظ الذكر هو حفظ مادة الوحي كلها وذلك من خلال ربط النص المتلو مع محل خطابه من الواقع، وحفظ الرسالة التشريعية الموجهة للمجتمع الإنساني من خلال وضعها وتفصيلها بين آيات القرآن فشملها الحفظ الموضوعي بجانب كونها سنناً اجتماعية متعلقة بالأنفس نحو قانون النفعية والأحسنية فالواقع كفيل بغربلة وفرز الخطأ ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ ﴾ (الرعد 17).

هذا هو مفهوم اللوح المحفوظ، والكتاب المكنون، وأم الكتاب. وقد بينا علاقة اللوح المحفوظ مع النص القرآني، وأنه علاقة الشيء بصورته، علاقة الأصل بالنسخة عنه.

وبهذا الطرح سقط وبطل أي استغلال لمفهوم اللوح المحفوظ بالمعنى التراثي لنقض النص القرآني والتشكيك بمصدريته الإلهية أو التشكيك بحفظه كنص لساني، لأن مفهوم التراث لا يمثل حقيقة المفهوم موضوعياً وإنما هو مجرد رأي زمكاني ضمن معطيات المجتمع حينئذ غير ملزم به أي مجتمع لاحق.

المحكم والمتشابه في الكتاب

﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ (آلعمران 7).

إن كلمة الكتاب شاملة لكل ما أنزل الله على رسوله مما هو موجود بين دفتي المصحف مع مختلف مواضيعه.

يخبر الله عز وجل أن الكتاب يحتوي على آيات محكمات عدَّها الله عز وجل أم الكتاب، وآيات أخرى متشابهات، وأخبر أن الذين في قلوبهم زيغ يتبعون الآيات المتشابهة بقصد الفتنة، وبقصد تأويله، وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا. ولنرَ الآن معاني مفردات النص:

1- محكمات: من حكم وهي أصل واحد هو المنع. وسمي الحكم حكماً لأنه يمنع من الظلم.

2- متشابهات: من شبه أصل واحد يدل على تشابه الشيء وتشاكله لوناً ووصفاً. والمشتبهات من الأمور أي المشكلات.

3-الأم: الأصل والمرجع.

4 – الكتاب: من كتب وهي تدل على الجمع وسمي الكتاب كتاباً لأنه يجمع ما بداخله من الأمور المرتبطة مع بعضها فنقول: كتاب الصلاة، كتاب الزكاة. أي مجموعة الأمور المتعلقة بهما.

5 – زيغ: أصل يدل على ميل الشيء.

6 – الفتنة: من فتن، أصل صحيح يدل على ابتلاء واختبار .

7 – تأويل: من أول: أصلان: ابتداء الأمر، وانتهاؤه.

فالآيات المحكمات هي الآيات ذات الدلالة المانعة للبس والإشكال وهي بمجموعها تمثل الجانب الثابت للكتاب من حيث المفهوم، ومن هذا الوجه كانت هذه الآيات أصلاً ومرجعاً للآيات المتشابهة لتقوم بضبطها من حيث الدلالة واستبعاد الخطأ في الفهم لها مع السماح بتطور فهمها ضمن مفاهيم الآيات المحكمة ولذلك أطلق الله عز وجل على الآيات المحكمات وصف (أم الكتاب) لأنه تحققت بها صفة الأصل والمرجعية للآيات المتشابهة التي تمثل الجانب المتغير في الكتاب حسب تغير الزمان والمكان والتطور المعرفي للمجتمعات أما الذين في قلوبهم زيغ عن الحق فيقومون باتباع الآيات المتشابهة دون إرجاعها إلى أمها الآيات المحكمات، ويقصدون من عملهم هذا نشر الفتنة بين الناس وذلك من خلال طرح الموضوع اعتماداً على الآيات المتشابهة فقط دون الرجوع إلى الآيات الأم التي هي الأصل والمرجع لأي موضوع نحو اعتماد بعض الباحثين على آية

﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾ (الأنعام 125).

ويجعل هذه الآية أصلاً ومرجعاً ويضرب آيات الكتاب ببعضها ليصل إلى أن هناك تناقضاً بين آيات الكتاب، فما تثبته آية تنقضه أخرى، ووجود هذه الصفة بالكتاب هي التي ساهمت في صياغة أسباب النزول ومفهوم المحكم والمتشابه للخروج من هذا المأزق !! هكذا زعموا.

لذا لا يصح اقتطاع نص من القرآن وفهمه وحده بل لابد من فهم النص ضمن منظومته الكلية كونها الأصل والمرجع للنصوص الجزئية والمتشابهة، ومن هذا الوجه ظهرت مقولة أن الكتاب يفسر بعضه بعضاً، وظهرت أهمية ترتيل الآيات ذات الموضوع الواحد وجعل الآيات المحكمات هي الأصل والمرجع للدراسة وعلى ضوئها يتم تفسير الآيات المتشابهة.

أمَّا أصحاب الزيغ فيقصدون من اتباعهم للآيات المتشابهة دون المحكمة الوصول إلى تأويلها في الواقع، بمعنى ادعاء معرفة سقف دلالة هذه الآيات في الواقع وذلك كي يفرغوا الكتاب برمته من الصلاحية والاستمرار الزمكاني، لأن توقف العطاء المعرفي للكتاب الإلهي يؤدي في واقع الحال إلى انتهاء دوره عند آخر عطاء معرفي له، وبالتالي يصبح تاريخاً وموروثاً دينياً للشعوب غير صالح للاستمرار والاعتماد عليه، ومن جراء ذلك التأويل السقفي يتم استبعاد الكتاب من الحياة ووصفه بعدم الصلاحية للزمان

المعاصر لأنه قد تمَّ تجاوزه معرفياً، وهذا ما قام به المستشرقون ومن حذا حذوهم من الباحثين العرب.

وكون موضوع التأويل يقصد به معرفة السقف المعرفي للآيات المتشابهة فمن الطبيعي جداً أن تأتي جملة (وما يعلم تأويله إلا الله) لأن هذه المعرفة السقفية للآيات مرتهنة بتوقف الحياة والتطور المعرفي والأدواتي، ولا يستطيع أي مجتمع أن يدعي أن التطور المعرفي توقف عنده أو الحياة انتهت ولا يوجد مجتمع لاحق يرث المجتمع الحالي.

فمن هذا الوجه كان الذين في قلوبهم زيغ عن الحق يتعمدون التدليس على المجتمعات ويَدَّعون انتهاء التاريخ[1] بهم وعندهم ويطالبون المجتمعات الباقية باتباعهم في زيغهم بل ويقومون بالوصاية على المجتمعات اللاحقة واغتيال عقولهم وتفكيرهم سلفاً وكل ذلك من جراء اتباع منهج قائم في كل شيء على النسبية والتغير لا يخضع ولا يعتمد على جانب ثابت يكون أساساً للمنهج والموجه له في عملية التغير والتطور.

أما الراسخون في العلم فيعلمون أن الحياة قائمة على جانب ثابت وآخر متغير فيؤمنون بالجانب الثابت [الآيات المحكمات] ويقومون بدراسة الآيات المتشابهة من خلال إرجاعها إلى الأصل والمرجع (أم الكتاب) مع عدم ادعاء الوصول إلى السقف المعرفي لهذه الآيات وإنما

[1] نحو كتاب: نهاية التاريخ لفوكوياما.

يتفاعلون معها حسب أدواتهم المعرفية ويكلون المعرفة الحقيقية لله عز وجل فهو وحده العالم بحقائق الأمور ابتداء وانتهاء [التأويل].

فالآيات المحكمات (أم الكتاب) هي الجانب الثابت للكتاب وبها يتم التواصل مع المجتمعات السابقة واللاحقة، أما الآيات المتشابهة فهي الجانب المتغير النسبي الذي يضمن التطور للمجتمعات، وبوجود الثابت والمتغير - المحكم والمتشابه - يتم التواصل والتطور، السيرورة والصيرورة.

ولمعرفة الآيات المحكمات من الآيات المتشابهة يجب أن يكون هناك ميزان خارج النص القرآني يكون محلاً للتسليم من قبل الباحثين المختلفين في الرؤى والمرجعيات، وذلك يؤدي إلى أن يكون المحكم عند فلان متشابهاً عند الآخر، وذلك راجع إلى منهج تناول الآيات ودراستها لأن في النهاية جميع الآيات هي نص إلهي مقدس.

فالمنهج والميزان والمعيار الذي يجب أن يكون مستخدماً في عملية تمييز المحكم من المتشابه إنما هو القرآن الموضوعي - الآفاق والأنفس - كونه محلاً للخطاب كما أن الفعل - الواقع- دائماً أصدق وأصرح وأبين من النص اللغوي، ولأن فهم النص تؤثر به ثقافة الدارس له، وهذا التفاوت الثقافي والعلمي والعقلي والنفسي ناهيك عن المصالح والهوى عند الباحث يؤدي حتماً إلى الاختلاف في قراءة النص ويؤثر في عملية ترتيب منظومة النصوص ذات الموضوع الواحد. فلذا لا مناص من جعل الواقع - آفاق وأنفس - هو المعيار لقراءة النص وبناء عليه يتم ترتيب منظومة النصوص

ذات الموضوع الواحد لجعل النصوص المحكمة أساساً وقاعدة وإطاراً لفهم النصوص المتشابهة بشكل نسبي يتناسب مع الأرضية المعرفية للباحث، والنتيجة هي الوصول إلى فهم ظني نسبي متغير حسب تغير الزمكان وتطور الأدوات المعرفية للمجتمعات مع دوام فعالية النصوص المحكمة كونها قاعدة ثابتة تستمد مصداقيتها من شهادة العدلين اللذين هما محل ثقة وصدق من الجميع (الآفاق والأنفس).

أما نصوص الرسالة فلا يوجد فيها آيات متشابهة، لأن الحكمة تقتضي وضوح الأحكام ليتم الحساب على موجبها.

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (فصلت 53).

﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ ﴾

(الحجر 87).

لقد ذهب السلف في تفسير هذه الآية إلى عدة مقولات من أشهرها:

1 - أن السبع المثاني هي سورة الفاتحة، وخاصة أنها مؤلفة من سبع آيات.

2 - وذهب آخرون إلى أن السبع المثاني هي سبع سور طويلة ابتدئ بها ترتيب النص القرآني وهي: البقرة، آل عمران، النساء، المائدة، الأنعام، الأعراف، الأنفال.

أما في الدراسات المعاصرة فلقد ذهبوا مذهباً مغايراً للسلف في تفسير الآية، فقيل:

إنها إخبار عن وجود سبع نظريات كلية أساسية قام عليها الوجود كله، وللعدد سبعة ميزة خاصة فعدد أيام الأسبوع سبعة، والسموات سبع، والأراضي سبع، وأقل أشهر الحمل سبعة، والفاتحة سبعة آيات، وعدد سور القرآن (114) من مضاعفات العدد سبعة.. إلخ.

وقال آخر[1]: إن عدد سبعة في الآية يخبر عن وجود سبعة أشياء قابلة لعملية التثنية بحيث يصبح المجموع أربعة عشر وهي من مضاعفات العدد سبعة ومن عملية تثنية أي ($7\times2 = 14$) وكون القرآن معطوفاً على

---

[1] د. محمد شحرور. الكتاب و القرآن.

السبع المثاني مما يدل على أنها ليست من النص القرآني وإنما هي شيء غيره، وليست هي إلا الأحرف التي تمَّ ابتداء مجموعة من السور بها نحو: (ألم، كهيعص، حم) وهذه الأحرف ليست هي لسانية وإنما هي عبارة عن مقاطع صوتية. ومن ثم قام بجمع الأحرف من بدايات السور وحذف المكرر فوصل إلى أنهم أربعة عشر حرفاً، وقال إن هذه المقاطع الصوتية هي الحد الأدنى لتأسيس أية لسان في العالم وهي الحد الأدنى للتخاطب بين العقلاء.

وهناك مقولات أخرى في تفسير الآية لسنا في صدد سردها جميعاً أو تقويمها وإنما لاحظنا أن القاسم المشترك بينها في التفسير هو انطلاقهم من أن دلالة كلمة (سبعاً) هي للتعداد وبناء على ذلك قاموا بتفسير الآية.

أما نحن فلقد انطلقنا من وجود احتمال أن تكون دلالة كلمة (سبعاً) ليست عدداً.

فقمنا بعملية سبر وتقسيم لمجموعة من الكلمات التي تبدأ بحرف (س، ب) وهي:

1 – سبح: من السعي والحركة، ومن ذلك السباحة وهي العوم في الماء، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ فالملاحظ من دلالتها أنها تدل على الحركة والتغير المستمرين الدائمين .

2 – سبق: أصل واحد يدل على التقديم. ويلاحظ في عملية السباق أنها حركة منتهية عند حد معين.

3 – سبر: البحث والتعرف على الشيء من كل جوانبه. ويلاحظ بذلك الحركة المتنقلة والمتكررة.

4 – سبت: أصل واحد يدل على الراحة والسكون. وهذا لا يمكن في واقع الحال إلا بعد حركة وجهد.

5 – سبغ: أصل يدل على تمام الشيء وكماله.

6 – سبل: أصل يدل على إرسال شيء من علو إلى أسفل. نحو قولنا: أسبل الرجل عينيه.

7 – سبك: أصيل يدل على التناهي في إنهاء الشيء. سبك النقود، سبك الحديث.

8 – سبخ: أصل واحد يدل على خفة في الشيء.

9 – سبط: أصل يدل على امتداد الشيء.

10 – سبى: أصل واحد يدل على أخذ شيء من بلد إلى آخر كرهاً. نحو سبي النساء في الحرب. فلاحظنا أن هذه الكلمات مشتركة في خندق واحد من حيث دلالتها على الحركة ويأتي الحرف الأخير ليحدد نوعية الحركة هل هي دائمة نحو كلمة (سبح)؟ أم حركة متوقفة ومنتهية نحو كلمة (سبق)؟ أم متكررة ومتنقلة نحو كلمة (سبر)؟ وبناء على ما وصلنا إليه نأتي لشرح دلالة كلمة (سبع) فالسين والباء إذا اجتمعا يدلان على الحركة كما ذكرنا ويأتي الحرف الأخير ليحدد اتجاه ونوع الحركة، وفي مسألتنا جاء حرف (العين) في آخر الكلمة وهو يدل على عمق وبُعد فقام بتحديد

نوعية الحركة وأنها حركة في عمق الشيء وكونها كذلك فهي في أحد أبعاده موغلة.

أي أن دلالة كلمة (سبع) هي حركة داخلية جوفية تكون طاقة وقوة دافعة لمن هي بداخله بشكل ذاتي لا تنضب أبداً. ومن هذا المنطلق سميت السباع – آكلة اللحوم — سباعاً، كونها تمتلك قوة داخلية ذاتية في الحركة والهجوم على طرائدها وهذه القوة السبعية ملازمة لها لا تنفك عنها أبداً. واستعيرت دلالة الكلمة على كل إنسان حصل على هذه القوة الذاتية الداخلية التي تشكل عنده طاقة ودافعاً للإقدام والاستمرار للحصول على مبتغاه فيقال: فلان سبع.

ونعود لتفسير الآية المعنية:

فالنص يخبر بعملية إيتاء أمرين للنبي من قبل الله عز وجل وهما:

أ – سبعاً من المثاني.

ب – القرآن الكريم.

ولقد حددنا دلالة كلمة (السبع) وأنها لا يُشترط بها دلالة العدد.

أما حرف (من) فمن دلالته التبعيض والتحديد، وكلمة (المثاني) هي الأصل والمرجع الذي تمَّ فعل الإتيان للسبع منها، فلذا لا يصح القول الشائع (السبع المثاني) بل لا بد من الالتزام بالنص القرآني (سبعاً من المثاني) لأن بإسقاط حرف (من) تختلف الدلالة بين القولين تماماً. فماذا تعني كلمة (مثاني)؟

مثاني: من التثنية للشيء. فنقول: ثنى الرجل كمه. إذا ردَّ طرفه على ما قبله.

ونقول في العد: اثنان. لأن الآخر أضيف إلى الأول الذي سبقه. فالتثنية: هي رد الشيء على غيره وتكراره.

قال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ (الزمر 23).

فالنص يخبر أن الله أنزل كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم.

وَمَنْ الذين يخشون ربهم؟ إنهم العلماء :

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ .

إذاً عملية التقشعر للجلود ولين الجلود والقلوب إلى ذكر الله والخشية منه تتم من جراء المثاني التي تدل على التثنية وهي رد المتشابه إلى المحكم والوصول إلى الفهم المطابق للواقع حسب الأدوات المعرفية الممكنة في كل مجتمع عبر الزمان والمكان، وهذه التثنية تدفع العلماء للخشية من الرب بما وصلوا إليه من العلم من جراء إسقاط النص المتشابه على محله من الخطاب (آفاق وأنفس) الذي هو محكم في واقع الحال مع استصحاب الآيات

المحكمة من الكتاب كإطار وموجه وضابط وهذه الآيات قد أطلق عليها الله في موضع آخر من الكتاب :

﴿ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ (آل عمران 7).

فيصبح معنا دلالة ﴿ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى ﴾ هي:

أن الله آتى محمداً قوة وحركة ذاتية في داخله تدفعه إلى الدعوة إلى الله وتعليم الناس والصبر على أذاهم، وذلك من المثاني أي من جراء قيام النبي محمد بعملية التثنية للنص القرآني على محله من الخطاب - آفاق وأنفس - فتتولد عنده تلقائياً طاقة محركة تدفعه إلى الخشية من الله، وتعطيه القوة على المضي والاستمرار في دعوته للناس دون توقف، وهذه الطاقة لا تنضب ما دام يقوم بعملية التثنية للنص القرآني الخالد، فإنه سوف يمده بقوة مستمرة، وهذا الأمر ينطبق على كل من يقوم بعمل النبي من العلماء فيحصلون على القوة السبعية ويصبحون سباعاً في مجال الدعوة إلى الله ونشر الخير والسلام والعدل بين الناس وإنذارهم باليوم الآخر لا يخافون في الله لومة لائم ويكونون الشهداء على الناس في كل زمان ومكان وحجة الله على خلقه المستمر إلى يوم الدين .

صفة كلام الله

بين

الأزلية والحدوث

إن صفة كلام الله هي صفة ذاتية من جانب وفعلية من آخر، أما الجانب الذاتي فهي قيامها بالمتكلم من حيث اتصافه بالمقدرة على فعل الكلام سواء قام بذلك أم لم يقم، نحو صفة السميع والبصير فسواء أكان هناك أصوات وصور أم لم يكن فالله سميع بصير بنفسه، وذلك كصفة ذاتية له ومن هذا الوجه أخذت صفة الأزلية، أما الجانب الفعلي لصفة الكلام فهي مرتبطة بالفعل وكونها كذلك فقد أخذت حكم الفعل من حيث الحدوث ابتداء نحو صفة الإرادة لله عز وجل فهي صفة قائمة بذات الله كصفة له وبالتالي فهي أزلية. أما توجهها نحو الفعل فلا شك أن ذلك التوجه هو حادث وذلك لتعلقها بالحوادث قال تعالى:

﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (يس 82).

وهذا النص صريح في تحديد العلاقة بين صفة الإرادة الحادثة من حيث التوجه .

[إذا أراد] وصفة القول [أن يقول له كن فيكون] مما يؤكد أن قول الله عز وجل هو عين إرادته الحادثة، وإرادته الحادثة وكلماته هما عين الوجود نفسه [كن فيكون] أي كلمات الله هي عين المخلوقات نفسها.

وبما أن الآفاق والأنفس هما كلمات الله كان من الطبيعي أن يطلق على القرآن صفة كلام الله كونه صورة لسانية مجعولة عن كلمات الله [الآفاق والأنفس].

ومن هذا الوجه كان لكلام الله بُعدان: بُعد موضوعي متمثل بالآفاق والأنفس(كلمات الله)، وبُعد لساني متمثل بالقرآن قابل للتلاوة والسماع.

إذاً؛ كل المخلوقات في الواقع هي عين كلمة الله عز وجل من حيث أنها وجدت بكلمة [كن] في أصلها.

قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (لقمان 27).

يخبر الله عز وجل في هذا النص عن سعة كلماته [خلقه] أنه لو أخذنا ما في الأرض سابقاً ولاحقاً واستمراراً من الأشجار وجعلناها أقلاماً تكتب بها المجتمعات الإنسانية بشكل توارثي لهذه العملية الإحصائية واستخدموا بحار الأرض كلها كمداد ومن وراء هذا البحر أبحر لا متناهية لكتابة كلمات الله لنفدت البحار قبل أن تنتهي عملية الإحصاء لكلمات الله وذلك راجع إلى عاملين:

الأول: أن هذه الأقلام والبحار هي نفسها معنية بعملية الإحصاء كونها من كلمات الله فمن الطبيعي أن تنتهي هذه المخلوقات ولم تبلغ إحصاء

ذاتها من ذرات وما تحوي بداخلها من عا لم لا متناه، فكيف تحصي غيرها من المخلوقات اللا متناهية؟!

الثاني: أن عملية استمرار كلمات الله في الواقع غير متوقفة مما يدل على استحالة إحصاء شيء مستمر لا متناه.

﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (النحل 8) ﴿ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ (الذاريات 47)

وتعترضنا مسألة إطلاق وصف كلمة الله على السيد المسيح عيسى بن مريم عليه السلام رغم أن جميع الناس هم من كلمات الله، فما المبرر لإطلاقها على السيد المسيح عيناً رغم أنه داخل في عموم كلمات الله مع الناس وما هي الميزة له في ذلك؟

إن هذا التخصيص للسيد المسيح بإطلاق عليه كلمة الله عيناً من دون سائر الناس إنما هو راجع لاختلاف إسقاط كلمة الله في الواقع. فخلق الناس كما هو معروف كان ضمن نظام معين خضع للتطور إلى أن وصل إلى عملية التزاوج واللقاح بين الذكر والأنثى لتتم عملية الولادة لإنسان جديد، وهكذا استمر النوع البشري، ولا شك أن هذا الخلق والنظام بدأ بكلمة (كن) أي بدأ بصورة معينة خضعت لمراحل تطورت عبر الزمان أي استمر مفعول كلمة الله في الوجود وانتقلت من صورة إلى أخرى إلى أن وصلت إلى الصورة البشرية المعروفة وكل ذلك بإذن الله عز وجل، وبالتالي لا يوجد ميزة لإنسان على آخر ليقول عن نفسه: أنا كلمة الله، لأن جميع الناس داخلين في ذلك.

أما السيد المسيح فقد اختلف في عملية ولادته إلى الحياة الدنيا عن ولادة الناس جميعاً مما أدى إلى تميزه من سائر الناس جميعاً. وذلك متحقق بأن ولادته كانت بتوجه مباشر لإرادة الله عز وجل نحو خلق السيد المسيح ولم يخضع لعملية اللقاح والنكاح كباقي الناس ومن هذا الوجه أطلق عليه وصف (كلمة الله) لتميز وجوده عن وجود سائر كلمات الله عز وجل، وعملية وجوده كانت كمثل عملية وجود الخلق الأول إذ بدأ بكلمة (كن) وكذلك السيد المسيح عليه السلام تم خلقه مباشرة بكلمة (كن) فالخلق الأول للجنس البشري اسمه كلمة الله وكذلك السيد المسيح عليه السلام اسمه كلمة الله.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (آل عمران 59).

إذاً صفة الكلام من حيث الواقع لها أبعاد:

الأول: صفة لله ذاتية وهي المقدرة على فعل الكلام وهي من هذا الوجه أزلية.

الثاني: الصورة اللسانية للقرآن اسمها كلام الله وهي حادثة مجعولة.

الثالث: الصورة الموضوعية للقرآن – آفاق وأنفس – اسمها كلمات الله وهي حادثة كونها مخلوقة وكل مخلوق محدود ضرورة.

وموضوع دراستنا هو علاقة كلام الله بكلمات الله وكلاهما حادث فكلام الله – النص القرآني – هو الصورة اللسانية لكلمات الله – الآفاق والأنفس – والعلاقة بينهما علاقة الأصل بالنسخة عنه.

فكلمات الله قابلة للدراسة والاكتشاف والتسخير لها نتيجة العلم بها وهي تخضع لعملية الرؤية.

أما كلام الله فهو قابل للتلاوة والسماع وهو صورة لسانية عن كلمات الله ولا يمكن أن يدرس أو يفهم إلا من خلال إسقاط كلام الله على كلمات الله التي هي أصل له كونها محل تعلق الخطاب. قال تعالى:

﴿ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾ (التوبة6).

أي اتلُ عليه النص القرآني حتى يسمعه وبعد ذلك يحاول أن يراه في الواقع – كلمات الله – من خلال عملية إسقاط الصورة اللسانية – الكلام – على الصورة الموضوعية – كلمة الله – فيصل إلى أن هذا – النص القرآني– حق من عند الله الخالق فينقاد لرسالته منهجاً وشريعة.

قال تعالى: ﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ (الأعراف 144).

فهناك في ما أنزل الله من وحي جانبان:

الأول: جانب رسالي وهو متعلق بالمجتمع الإنساني من حيث المنهج والشريعة :

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ (المائدة 48).

الثاني: جانب موضوعي وهو كلام الله عز وجل متعلق بكلمات الله - الآفاق والأنفس-.

فلذا لا يصح إطلاق صفة كلام الله على رسالته، والعكس صحيح أيضاً رغم أن كليهما موجودان بصورة لسانية في كتاب الله عز وجل وهو وحي من الخالق المدبر لعباده

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴾ (الكهف 1).

ومن خلال ما ذكرنا يجب الانتباه لورود ذكر صياغة الكلمة في القرآن نحو قوله تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (الأنعام 115).

فالمقصد بلفظ (كلماته) في النص المذكور هو السنن التي تأخذ مفعولها ومجراها عندما يقوم المجتمع بتعاطي أسبابها، انظر قوله تعالى:

﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ فسنة الله، وإذن الله، وكلمة الله، ألفاظ تجتمع بدلالات وتختلف بأخرى انظر قوله تعالى:

﴿ وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدٗا ﴾ (الكهف 27).

وقوله: ﴿ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗاۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ (الشورى 24).

وقوله: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴾ (الأعراف 158).

لاحظ صفة إيمان النبي كيف جاءت على وجهين:

الأول: الإيمان بالله وهذا الإيمان هو أساس الإيمان بالغيب المؤسس على عالم الشهادة.

الثاني: الإيمان بكلمات الله: وهو عالم الشهادة الذي يتمتع بوجود موضوعي قابل للدراسة والتسخير له من جراء هذه الدراسة.

فالنبي يؤمن بالله الخالق المدبر من جراء عالم الشهادة فتأسس عنده عالم الغيب، كما أنه يؤمن بالوجود الموضوعي للآفاق والأنفس فتأسس عنده عالم الشهادة كوجود له صفة الحق المستمدة من الحق، فالعلاقة بين عالم الغيب والشهادة علاقة جدلية، فالأول – الغيب – سبب لوجود الثاني – الشهادة – والثاني دليل على الأول.

ومن خلال هذا الطرح ظهر بطلان قول من يقول بأزلية القرآن ببعده اللساني – كلام الله – لأن ذلك حادث ومجعول كما هو معلوم ناهيك عن أن اللسان العربي بشري مخلوق خضع للتطور المعرفي وهو حادثة وقد نص الخالق على ذلك في كتابه إذ قال: ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ (الأنبياء 2).

أما القول بأزلية كلمات الله – الآفاق والأنفس – فهذا قول هراء ومتهافت لا قيمة له من الناحية العلمية.

وكذلك السنن الناظمة للوجود – أم الكتاب – فهي مرتبطة بالخلق الحادث بشكل لازم له ارتباط الكم بالكيف والعكس[1].

أما الآيات المتعلق خطابها بذات الله عز وجل فهي حادثة كنص وأزلية كمضمون نحو ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ .

لذا يجب إرجاع كلام الله ببعديه – الموضوعي والصوتي – إلى مجال الدراسة والتفكر والتدبر للوصول إلى عملية المصداقية بينهما وتبيين ذلك للناس ليعلموا أنه الحق من ربهم فينقادوا لرسالته انقياد المؤمن البصير.

ونكون بذلك البحث قد سددنا الثغرات وأزلنا الإشكالات التراثية التي دخل منها المستشرقون وغيرهم واستغلوها للطعن في مصداقية القرآن ببعده اللساني، ومن هذا الوجه تبرز أهمية فرز التراث الثقافي وعدم سحبه على ما هو عليه إلى واقعنا المعاصر لأنه رأي غير ملزم للمجتمعات اللاحقة،

---

[1] راجع كتابي الألوهية والحاكمية دراسة علمية من خلال القرآن الكريم فصل مفهوم الأزلية.

وبالتالي لا يصح عدُّه رأياً يمثل الإسلام وإنما هو رأي يمثل فهم الإسلام لمجتمع معين بزمان ومكان خاص بهم.

فلذا يجب دراسة الإسلام دراسة معاصرة تعتمد على القرآن ببعديه -الموضوعي واللساني- ودراسة رسالة الله من خلال كتابه ضمن منظور علمي قائم في أساسه على الواقع كونه محلاً للخطاب.

وهمية وجود الناسخ والمنسوخ
في
كتاب الله

أول شيء يجب أن نعرفه قبل دراسة الناسخ والمنسوخ أن تلك العملية لا يمكن أن تكون في كلام الله – القرآن ببعديه الموضوعي واللساني – لأن البُعد اللساني لكلام الله إنما هو صورة للبعد الموضوعي أي إخبار عن الوجود الحق، وبالتالي لا يمكن أن يُنْسخَ البعد اللساني لكلام الله لأن ذلك لو حصل لاقتضى وقوع الكذب والاختلاف بين البُعدين الموضوعي واللساني.

﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ﴾

النساء (82).

إذاً على افتراض وجود مفهوم الناسخ والمنسوخ في كتاب الله يجب أن يكون محله رسالة الله وليس كلامه أي في النص الإنشائي وليس في النص الخبري، بمعنى آخر في نصوص الأحكام وليس نصوص القرءان.

ومن المعلوم أن النسخ لم يقع قط في الرسالة الواحدة وإنما كان يقع بين رسالتين لأن النسخ في الرسالة الواحدة باطل وعبث لما يترتب عليه من اتصاف المرْسِل من تناقض وعدم المعرفة أو العلم بالجهة المرسَل إليها، فضلاً عن أن صفة النسخ لو وجدت بالرسالة الواحدة لانتقضت الرسالة ذاتها وثبت بطلانها، قال تعالى في وصف قصة بعثة عيسى عليه السلام لبني إسرائيل: ﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ (آل عمران50) .

أما التشريع القرآني فقد نزل منذ البداية له صفة الكمال والصلاحية التي تقتضي الإنسانية والديمومة والعالمية فلو حصل نسخ لأحد الأحكام فمعنى ذلك أن هذا النص المنسوخ عندما نزل لم يكن يتصف بتلك الصفات ، وبالتالي ينتفي عنه مقتضياتها ويصير نصاً عينياً مثل نصوص أهل الكتاب المنسوخة، والسؤال المطروح لماذا حصل ذلك في المجتمع الأول؟ والجواب التقليدي هو لعلاج مشاكلهم بمرحلية تتناسب مع معطياتهم المعرفية. فنقول لو حصل ذلك لاقتضى أن يستمر في كل مجتمع بعد المجتمع الأول عملية النسخ لأن لكل مجتمع مشاكله وظروفه التي تحتاج

إلى مرحلية في العلاج حسب معطياته الثقافية والموضوعية، وكون هذا الأمر لم يستمر أو يحصل في المجتمعات اللاحقة مما يؤكد على انتفاء حصوله في المجتمع الأول كون النص التشريعي ابتداء موجه إلى الإنسانية والعالمية وليس إلى العرب خاصة.

فعملية النسخ إنما هي حصراً بين الرسائل ولا يمكن أن تكون في الرسالة الواحدة وهذه العملية بين الرسائل إنما هي أمر لازم لتطور المجتمعات كون كل رسالة سابقة كانت تنزل موجهة إلى مجتمع بعينه حتى جاءت رسالة القرآن لتعلن أن المجتمعات البشرية قد وصلت إلى بدء سن النضج وهذا يقتضي تغيير في بنية الرسالة ذاتها من الصفة العينية إلى الصفة الحدودية - رفع الوصاية الإلهية عن الناس - وجعلها عالمية إنسانية دائمة وذلك لتعتمد المجتمعات الإنسانية على أنفسها في تشريع ما يستجد لهم من خلال عملية التطور وذلك ضمن حدود الله عز وجل التي جعلها إنسانية عالمية لتكون الأرضية التي يعتمد عليها المجتمع الإنساني في تشريعه الزمكاني لا يتجاوز حدود الله أبداً.

وإذا كان التشريع بتلك الصفة أي أنه إنساني وحدودي ودائم لا يمكن أن يقبل النسخ في بنيته أبداً لا في زمن نزول الوحي ولا من بعده، لذلك كان هذا الشرع الحدودي هو الشرع الكامل والجامع لما سبق والمستمر إلى آخر مجتمع إنساني في الوجود.

والقول بإمكانية وقوع النسخ في الرسالة الكاملة والجامعة أو وقع فعلاً يلزم من ذلك نقض هذه الصفات عنها ضرورة لازمة لهذا القول، وكون هذه الصفات ثابتة بشكل قطعي للشرع القرآني مما يدل على بطلان مسألة وجود الناسخ والمنسوخ في هذه الرسالة ، لذا؛ يجب حذف هذه المسألة من بحث علوم القرآن وعدم تدريسها. مع العلم أن هذا الموضوع غير معروف وغير متداول في مجتمع النبوة ولم يثبت أي خبر في ذلك أبداً.[1]

والنص الذي ذكر النسخ في القرءان{مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }البقرة106

نسخ يتعلق بالآيات خارج النص القرءاني وهي آيات الآفاق والأنفس، بدليل مجيء فعل المضارع(ننسخ) وهو يدل على استمرار فعل النسخ إلى يوم الدين، وبدليل حين وقوع النسخ الإتيان بخير منها أو مثلها ، وهذا لايصح في الأحكام الشرعية لانتفاء الحاجة لنسخها إن كان سوف يأتي مثلها، وبدليل انتهاء النص بصفة القدرة لله المتعلقة بالآفاق والأنفس، ولو كان المقصد بيات التشريع لكان ينبغي أن ينتهي النص بذكر صفة العلم لله أو الحكمة.

---

[1] راجع كتابي: الآحاد، الإجماع، النسخ.

كتاب الله وأسباب النزول

إن كتاب الله عز وجل يحتوي على الرسالة الكاملة الجامعة للشرائع السابقة وهذا يقتضي اتصافها بالديمومة والإنسانية والحدودية والعالمية، وكون الأمر كذلك فالنص التشريعي بطبيعة الحال موجه إلى كل المجتمعات الإنسانية عبر الزمان والمكان، وهذا التوجه يقتضي أن يكون النص الإلهي حجة بذاته غير مقيد بفهم أي مجتمع ومتحرر من الظروف الزمكانية التي وافقت زمن نزول النص الإلهي.

ومن هذا الوجه قال العلماء: العبرة بعموم النص وليس بخصوص السبب.

وذلك لأن التشريع الإلهي سوف ينزل لا محالة سأل عن ذلك بعض الناس في وقت نزول الوحي أم لم يسألوا، فالتشريع كمضمون قائم كامل في علم الله الفعلي[1] وليس اكتسابياً أو يخضع لعملية الدراسة والاستقراء.

ومن هذا الوجه لا يصح استخدام كلمة (سبب) على نزول التشريع الإلهي، لأن السبب هو: ما يلزم من وجوده الوجود ومن عدمه العدم. وهذا غير منطبق على التشريع لأنه سوف ينزل لا محالة كونه تشريعاً إنسانياً عالمياً وليس قومياً عينياً، والأصح إطلاق كلمة تاريخية نزول التشريع التي تفيد دلالة الوقت والحدث المناسب الذي تمَّ اختياره من قبل الخالق لينزل

---

(1) - راجع كتابي: علم الله وحرية الإنسان وكتابي الألوهية والحاكمية بحث مفهوم الأزلية.

النص التشريعي بصياغة مناسبة فوراً لأن النص التشريعي ليس للتلاوة إنما هو تشريع للواقع الاجتماعي، ومن هذا الوجه ارتبطت أحداث معينة بنزول النص التشريعي ليس كسبب نزول له وإنما كظرف مناسب لإنزال النص الإلهي إلى حيز التطبيق العملي، ولو قال قائل إن هناك نصوصاً نزلت بناء على سؤال من الناس أو ارتبطت بأحداث معينة فكيف لا يكون ذلك سبباً لنزولها؟ والجواب أن مضمون النص كحكم قائم في علم الله ليس كصياغة لسانية وغير مرتبط بالأحداث كون الحكم إنسانياً في توجهه وعالمياً في حركته ومتحققة فيه صفة الديمومة – السيرورة والصيرورة – وكل ما في الأمر أن هذا الحكم جعله الله عز وجل بنص لساني متزامن مع حدث حتى يتم تطبيق النص مباشرة كون مادة التشريع تظهر أثناء حركة المجتمع ومعاناته.

لذا فمفهوم أسباب النزول يجب أن يُلغى ويوضع مكانه مفهوم تاريخية النزول، وبالتالي يفهم الدارس لهذا الموضوع من العنوان ابتداء أنه يدرس الظروف والحيثيات الزمكانية للمجتمع الذي تمت فيه صياغة ونزول النص الإلهي، وَيُعَدُّ فهم المجتمع الأول للنص هو الاحتمال الذي ارتضاه المجتمع لحل مشاكله وتنظيم حياته وذلك إذا كان النص احتمالي الفهم ويسمح بالحركة ضمن نزوله في منظومته التي ينتمي إليها هذا النص.

وهذا الكلام يوصلنا إلى أن تاريخية نزول التشريع سواء أكان متزامناً مع حدث بعينه مناسباً لاختيار نزول النص لحيز التطبيق وهذا الجانب محل

أخذ ورد من قبل العلماء وذلك لوجود عملية الوضع والدس أم مناسباً كظرف اجتماعي ككل، فالأمر سواء لأن النص التشريعي حجة بذاته وهو موجه لكل مجتمع على حدة لا علاقة لتفاعل المجتمع السابق بتفاعل المجتمع اللاحق إلا من كونه تفاعلاً تاريخياً، وبالتالي هو تراث ثقافي يدرس من هذا الوجه، وتتم عملية فرزه حسب الأدوات المعرفية المستجدة ليستمر ما ثبت صلاحيته ويستبعد ما لم يثبت صلاحيته ومناسبته لنا مع قيامنا بالتفاعل المباشر مع النص الإلهي كوننا معنيين بالخطاب ونقوم بتفعيل النص والتحليق بفضاء دلالاته متجاوزين ألفاظه إلى مقاصده وذلك من خلال إسقاطه على محل خطابه من الواقع معتمدين بفهمه على منظومته الكلية التي ينتمي إليها الحكم ضمن المنظومة العامة للتشريع ومتحركين بالصلاحية التي منحنا الله إياها (الخلافة في الأرض) ضمن حدود الله عز وجل لتحقيق المصلحة العامة للمجتمع والسعادة للفرد بشكل نسبي ضمن الإمكانيات المعرفية والمادية للمجتمع. {وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ العَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ }الزمر55، {الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ }الزمر18

نزول القرآن مفرّقاً

قال تعالى:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ﴾ (الفرقان 32).

﴿ وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ﴾ (الإسراء - 106)

لقد نزل النص القرآني بشكل مفرق وليس جملة واحدة كما هو ثابت في تاريخ نزول النص القرآني، واستغرقت عملية نزوله ما يقارب ثلاثة وعشرين عاماً، وهذا النزول المفرق على مدى الزمن الطويل أثار تساؤلات كثيرة عن السبب من ذلك، وما هي الحكمة؟.

بدايةً يجب أن نستبعد مصطلح التنجيم عن نزول النص القرآني لأنه لا يؤدي دلالة الحدث وغير مستخدم بالقرآن بهذا المعنى، فكلمة (نجم) أصل صحيح تدل على طلوع وظهور[1] والعلماء يقصدون من استخدام مصطلح التنجيم دلالة التفريق، وبما أنه علمنا أن كلمة (التنجيم) لا تؤدي دلالة كلمة (التفريق)، وكلمة التفريق كلمة مستخدمة في النص القرآني للدلالة على هذا النزول المفرق يجب التقيد بالاستخدام القرآني. ﴿ وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ ﴾ .

---

[1] - راجع مقاييس اللغة.

فرق: أصل صحيح يدل على تمييز وتجزيء[1] وعكس استخدام كلمة (المفرق) هي كلمة (الجملة) ولذا قال الكافرون ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ﴾ ونستخدم هذا المصطلح في حياتنا اليومية فنقول: بيع الجملة، بيع المفرق.

ونلاحظ من دلالة كلمة (فرق) في الواقع أنها تكون في الموضوع ذي العلاقة المتجانسة بشكل أو بآخر.

انظر قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلاً ﴾ (النساء 150).

وقوله: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ فالنص القرآني إنما هو كتاب واحد متماسك فلذا جاءت كلمة التفريق لتدل على هذا المعنى من حيث النزول لهذا الموضوع مفرقاً ويتم جمعه في الواقع بعد انتهاء نزوله كاملاً، كما أنها تدل على وجود الموضوع جملة واحدة قبل نزوله وذلك كمضمون ومقصد ومن ثم تتم صياغة ما يريد الله

---

[1] – راجع مقاييس اللغة.

أن ينزله ضمن نص لغوي يتناسب مع الظرف ليس كسبب نزول وإنما كحالة مناسبة لنزول النص.

وبعد هذا الضبط لمصطلح نزول القرآن مفرقاً وليس منجماً لنرَ السبب الكامن وراءِ نزوله بشكل مفرق وليس جملة واحدة.

كان الناس يعرفون أن الكتب السابقة قد نزلت جملة واحدة - التوراة والإنجيل - على الرسل، فقالوا

﴿ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ﴾ مثل الكتب السابقة، فأجابهم الله عز وجل: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلاً ﴾.(الفرقان -32) وقال: ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ ﴾ (الإسراء 106).

وقبل تفسير النصين المذكورين لنَقُمْ بمقارنة بين ظروف نزول الكتب السابقة جملة واحدة، ونزول النص القرآني مفرقاً.

1- نزلت الكتب السابقة على مجتمع مؤسس إيمانياً - بني إسرائيل- بخلاف نزول النص القرآني فإنه نزل على مجتمع جاهلي وثني.

2- الكتب السابقة زمكانية في توجهها لا تهدف إلى تأسيس قواعد لمشروع ثقافي ديني إنساني.

- النص القرآني كان يهدف إلى تأسيس مشروع ثقافي ديني وهو كامل وجامع لما قبله ومستمر لما بعده.

3- آيات الأنبياء سابقاً كانت خارج كتبهم. نحو عصا موسى، ناقة صالح.. إلخ.

- آية النبي هي النص القرآني ذاته.

4- الكتب السابقة كانت مجموعة من التعاليم الموجهة إلى قوم بعينهم - شرع عيني -.

- النص القرآني كتاب نزل للعالمين واحتوى بداخله شرعاً حدودياً إنسانيا دائماً.

5- الكتب السابقة غلب عليها مادة القصص والأدعية والأذكار بجانب الآصار والعقوبات لمن نزلت عليهم كون الكتب قومية في توجهها.

- النص القرآني كتاب تميز بالمادة العلمية - آفاق وأنفس - وارتباط خطابه بالواقع ارتباط اللازم بالملزوم، بجانب تنزهه عن الآصار والعقوبات كونه موجهاً إلى الإنسانية جمعاء عبر الزمان والمكان.

إذاً؛ هناك فرق كبير واضح بين وظيفة الكتب السابقة، ووظيفة النص القرآني وهذا الاختلاف في الوظائف قطعاً يؤدي إلى بطلان قياس أحدهما على الآخر في كيفية نزوله، فلقد نزل كل منهما بالطريقة التي يؤدي بها وظيفته.

وعودة إلى تفسير النصين المذكورين:

فالنص الأول يذكر: عملية تثبيت فؤاد النبي، وعملية الترتيل للنص القرآني.

والنص الآخر يذكر: عملية القراءة على الناس على مكث، والتنزيل للنص القرآني.

ولنبدأ بعملية تثبيت فؤاد النبي:

- إن الفؤاد هو القوة الفاعلة عند الإنسان التي يدرك بها الأشياء من جراء استخدام السمع والبصر أي ربط المعلومات مع محلها من الواقع والحكم عليها .

إن النبي هو واحد من البشر ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ وهذا يقتضي أنه محدود في تفكيره وثقافته وعلمه وأن ذلك هو اكتسابي وليس ذاتياً.

فبدأ نزول النص القرآني بكلمة (اقرأ) وهي كلمة تدل على التفكر والتدبر والفهم للمادة المقروءة سواء أكانت محلاً للتلاوة كنص لساني أم ظاهرة كونية واجتماعية. فلا يشترط لفعل القراءة فعل التلاوة وخاصة إذا علمنا أن النبي كان لا يعرف الخط أي لا يتلو المخطوط ولا يستطيع أن يخط بيده ، بخلاف القراءة فإنه قادر عليها بل هي من تمام مقومات النبوة لذلك نزل أول نص قرآني يأمر النبي بعملية (القراءة) ووجهه نحو مادة القراءة التي هي صفحات الآفاق والأنفس.

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ وما هذا الأمر والتوجه إلا لجعل النبي أن يضع يده ويدرك منهج الآفاق والأنفس كمحل للتفكير ومصدر للمعلومات ومعيار لها فبدأت ثقافة النبي تظهر وتنصقل مع تتابع نزول النص القرآني يوماً بعد يوم فثقافة النبي وعلمه في السنة الأولى من الدعوة ليست هي نفسها في السنة الثانية وهكذا تزداد ثقافة النبي ويتمكن من الحكمة - المنهج - مع تتابع نزول النص القرآني بشكل مفرق كونه المصدر الثقافي والعلمي الذي يعتمد عليه النبي في دعوته وحواره مع قومه.

إذاً النص القرآني منذ البداية دخل معترك الصراع الثقافي والمعرفي، وهذا الصراع متجدد ومتنوع حسب المستجدات وهذا يقتضي من النبي أن يكون مستعداً عقلياً ونفسياً وثقافياً ليخوض هذه المعركة الفاصلة بين الحق والباطل، وهذا يقتضي أن ينزل النص القرآني مفرقاً على قلب النبي ليتم التفاعل معه ويتم شحنه نفسياً ورفع مستواه الثقافي بتدرج يتناسب مع مستوى الصراع الثقافي ليعلو عليه، وهذا ما عناه قوله تعالى :

﴿ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ فكان النص القرآني ينزل مفرقاً ليتناسب مع مجرى الصراع الثقافي بين النبي وقومه ويغطي المعطيات الثقافية التي كانت تعرض للنبي من قبل قومه. انظر قوله تعالى:

﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ (الفرقان 33).

أما قوله ﴿ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلاً ﴾ فهي تأكيد على ما ذهبنا إليه سابقاً من كون أن الله ينزل الرتل من النص القرآني الذي يدفع به الباطل ويدحره، وهكذا ترتل النص ترتيلاً يتناسب مع قوى الباطل ومستجداته.

العملية الثانية من نزول النص مفرقاً هي :

﴿ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلاً ﴾.

والقراءة كما مرَّ معنا هي التدبر والفهم، والمكث: كلمة تدل على الانتظار والهدوء فيكون المقصد من نزول النص القرآني مفرقاً هو تمكين النبي من تدريسه وتفهيمه للناس وإعطائه الوقت الكافي، وهذه الصفات مسحوبة أيضاً للناس، فنزول المادة الثقافية والمعرفية بشكل مفرق على الناس يجعلهم يتفاعلون معها وخاصة إذا كانت مرتبطة بحياتهم الاجتماعية

خطوة بخطوة بل تدفعهم إلى النهوض وتغيير ما بأنفسهم من انحطاط وتخلف للوصول إلى النهضة والرقي، فنزل النص القرآني مفرقاً ومتناسباً مع الظرف الثقافي والاجتماعي ليغير الواقع الجاهلي ويوجد البديل له وهو المجتمع الذي يقوم على الأمن والسلام والعدل والإحسان - المجتمع الإنساني -.

ومن تمام حكمة الله عز وجل أن النص القرآني لم يجمع بعد انتهاء نزوله على تاريخية نزول النصوص لأن الأحداث التي زامنت نزول النص القرآني إنما هي أحداث خاصة لذلك المجتمع، وبالتالي فلكل مجتمع أحداثه ومشكلاته مما يقتضي أن يقوم كل مجتمع بترتيب خاص للتعامل مع النص القرآني ينسجم مع الزمكان والأدوات المعرفية التي يملكها المجتمع ومثل ذلك كمثل لوحة الفسيفساء التي لها إطارٌ ثابت ومحتوى من الأشكال اللامتناهية ومطلوب من كل مجتمع تشكيل المحتوى الذي يناسبه ذوقاً ومصلحة وكل ذلك ضمن الإطار لا يخرج عنه أحد أما قوله:

﴿ وَنَزَّلْنَـٰهُ تَنزِيلاً ﴾ فهو تأكيد على أن النص القرآني قد تمت صياغته لساناً ابتداء في ذلك العصر مستخدماً المقاطع الصوتية للسان واستعار أحداثهم كظرف مناسب لنزول النص على الواقع مباشرة للتطبيق نحو قولنا: وأسقطناه إسقاطاً. أي تمَّ تفصيل النص لساناً خارج وعي وإدراك النبوة ومن ثم نزل عليه هذا النص المفصل ليتم إسقاطه على الواقع مباشرة، حتى إذا انتهى الواقع الذي نزل النص متزامناً معه بقي النص ثابتاً لساناً وبالتالي يجب تحريك المحتوى حتى يتناسب مع واقع جديد، وهكذا

كل مجتمع يقوم بتفعيل النص من جراء الغوص في مقاصده ودلالاته ضمن منظومته الكلية التي تفهم ضمن المنظومة العامة للقرآن مع استحضار الآفاق والأنفس كمصدر للمعلومات ومحل للتفكير ليوضع أساس وقاعدة لإسقاط المصدر القرآني عليه والتطابق بينهما ضرورة علمية وإيمانية.

فيكون النص القرآني من خلال عملية نزوله مفرقاً ضمن زمن طويل قد حقق ما يلي:

1- تثبيت فؤاد النبي بالمعنى الذي طرحناه آنفاً.

2- تغطية مراحل الصراع الثقافي وإنزال النص الذي يناسب ظروفه ﴿ وَرَتَّلْنَـٰهُ تَرْتِيلاً ﴾ .

3- تمكين الناس من دراسته والتفاعل معه.

4- تمكين الناس من حفظه كمتن.

5- المضي بالمشروع الثقافي الديني قُدُماً إلى الأمام خطوة خطوة إلى أن اكتمل ووقف على قدميه.

6 – صياغة النص لساناً باستخدام أحداث المجتمع الذي نزل فيه النص ﴿ وَنَزَّلْنَـٰهُ تَنزِيلاً ﴾ .

إلى غير ذلك من الأمور الكامنة وراء حكمة نزول النص القرآني مفرقاً.

ولو نزل النص القرآني جملة واحدة لانتفت كل هذه الأمور السابقة، واقتضى أن ينزل النص مكتوباً على قرطاس حتى يراه الناس ويستطيعوا أن يتعاملوا معه ويتمكنوا من حفظه ولو حصل وأن نزل جملة واحدة مكتوباً

لقال الكفار ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ ((الأنعام 7).

أما موضوع نزوله إلى السماء الدنيا جملة واحدة وغير ذلك من الأخبار فهي كلها قائمة على الظن لا يعتد ولا يثبت بها شيء.

وكذلك تفسير قوله تعالى :

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (البقرة 185)

ليس المقصود به النزول لكامل النص جملة وإنما المقصد هو ابتداء نزول النص القرآني على المجتمع الإنساني حينئذ و الذي استمر بعد ذلك طوال ثلاثة وعشرين عاماً.

أما شبهة أن صياغة النص القرآني باللسان العربي كانت موجودة سابقاً منذ الأزل أو منذ فترة طويلة في اللوح المحفوظ، فهذا غلط فاحش، وقد بينا ذلك سابقاً في هذا الكتاب نفسه فليراجع مكانه.

وبذلك تكون قد سقطت الشبهات والإشكاليات التي وضعها المشككون سابقاً ولاحقاً حول مسألة تفريق نزول النص القرآني.

الظاهر والباطن

﴿ هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴾ (الحديد 3).

إن مفهوم الظاهر والباطن من المفاهيم التي تناولها المسلمون كل حسب مرجعيته، فمنهم من أنكر هذا المفهوم من أساسه وذلك كردة فعل عاطفية على من أثبت هذا المفهوم واستخدمه دون ضوابط وخرج بشطحات بعيدة جداً عن روح النص ومقصده، ومنهم من قام بتوظيف النص توظيفاً سياسياً من خلال مفهوم الباطن فجعله ينطق بأمور ليست هي في الواقع من وظيفة النص أصلاً. وقد نقل لنا التراث كل هذه الاختلافات والتباين بالرأي والموقف من مفهوم الظاهر والباطن، وكانت الدراسات المعاصرة امتداداً لهذه الآراء والمواقف ولم يكن لها موقف جديد يعتد به يضاف إلى الآراء الموجودة.

ومن هذا الوجه تظهر الحاجة الملحة لدراسة هذا المفهوم من خلال قراءة معاصرة للقرآن دون خوف أو وجل من سلطة السلف مجتمعين على مختلف مواقفهم وآرائهم.

فقوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ ﴾ .

إشارة إلى وجود الله عز وجل حيث كان ولا شيء معه ومن ثم ابتدأ خلق الخلق بقدرته فالوجود الحقيقي الذاتي لم يكن إلا للخالق المدبر فقط

لا غير وكل ما سواه إنما يستمد وجوده واستمراره من الأول حيث يستمر ظهور أسماء الأول في كل شيء يوجده، وبالتالي لا وجود حقيقي ذاتي لأحد غير الله عز وجل، وكون الأول يتجلى وجوده بفعله كان ظاهراً في كل شيء ، ومن هذا الوجه صح قول من قال: لم أنظر إلى شيء إلا ووجدت الله قبله وبعده. وهذا كلام عميق لأن صاحب الكلام كان يتجاوز ظاهر الشيء إلى عمقه وربطه بما قبله وما بعده فيصل إلى أن الله هو الخالق المدبر لهذا الشيء، وأن هذا الشيء سوف يؤول إلى خالقه آجلاً. والأحسن من هذا الكلام هو أن الله قبل الشيء ومعه وبعده. لأن الشيء يستمد وجوده واستمراره من الله عز وجل، فالخالق يتجلى للوجود من خلال خلقه الذي هم فعله(الإيجاد والإمداد)، لذا كان الخلق الفضاء الخصب لدراسة أفعال الخالق، ومن هذا الوجه صدق من قال: اعلم نفسك تعلم ربك.

أما مجيء كلمة الآخر بعد الأول فذلك لإثبات الأولية دون تعدد لأن الله أحد صمد فعندما نذكر الأول يجب أن نلحقها بالآخر حتى ننهي الكلام ولا يفهم أحد أن هناك إمكانية لاستمرار التعداد بقولنا ثاني وثالث ورابع.. إلخ. فكانت كلمة الآخر هي إعطاء الاستمرار للأولية إلى أن تكون هي نفسها الآخر، وبذلك كان الوجود الأحدي الصمدي هو

الوجود الذاتي الحقيقي وما سواه من المخلوقات فوجودها مستمد من الأول مع قيام الأول بنفسه وظهوره في كل شيء حتى يكون هو الآخر.

أما قوله : ﴿ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُ ﴾ .

فهو وصف لهذا الوجود القائم على صفتي الظاهر والباطن ولا يوجد أي مبرر لإنكار هذين الاسمين لأن ذلك الفعل هو مكابرة للحس والواقع، فالخلق قائم على قانون الزوجية أو الثنائية فإثبات صفة على حدة يكون ذلك بالوقت نفسه إثبات لضدها ضرورة، فعندما نقول على سبيل المثال: هذا ماء حار. نكون ضمناً أخبرنا السامع بوجود ماء بارد، وكذلك قولنا: هذه المادة صلبة. نكون ضمناً أخبرنا السامع بوجود مادة لينة لأن الشيء يستمد وجوده واستمراره من ضده وكلاهما زوجان، والواحد منهما اسمه زوج لأن وجود الزوج الآخر ضرورة لازمة له، نحو الذكر فهو زوج الأنثى في واقع الحال، وكذلك الأنثى هي زوج الذكر في واقع الحال، فإذا تمَّ التزاوج بينهما نقول: زوجين . لاجتماع كل زوج بضده.

فمن يثبت صفة الظاهر لشيء يكون بالوقت نفسه أثبت صفة الباطن ضرورة وإلا انتفت صفة الظاهر، لأنه لولا صفة الباطن لما كان هناك صفة الظاهر، ولولا صفة الظاهر لما كان هناك صفة الباطن، فكلاهما زوج للآخر قائم به. قال تعالى: ﴿ وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ ﴾

وكتاب الله عز وجل هو شيء ينطبق عليه قانون الزوجية كونه متعلقاً بالواقع – آفاق وأنفس – وبالتالي فله ظاهر وباطن قائمان ببعضهما بعضاً لا ينفكان أبداً، وأي محاولة لفهم النص ببُعد دون الآخر سواء أكان الظاهر فقط أم الباطن فهي محاولة فاشلة ولن يكتب لها النجاح وهذه الصفة الزوجية – الظاهر والباطن – لا يصح استخدامها إلا لفعل الله عز وجل – آفاق وأنفس وكلامه – بخلاف أفعال الناس فيتم التعامل معهم حسب الظاهر لعدم قدرة الناس على معرفة بواطن بعضهم ولعدم قدرة الإنسان على صياغة الكلام وهو مستحضر لكل أبعاده.

قد يقول قائل: إذا كان الإنسان يجهل باطن كلام الآخر فكيف يستطيع أن يعلم باطن كلام الله؟

فنقول: إن كلام الله عز وجل مرتبط بالواقع ارتباط اللازم بالملزوم فمعرفة باطن كلام الله إنما يكون من خلال دراسة محل تعلق الخطاب من الواقع فعندما يتكلم الله عز وجل عن السماء والأرض فمعرفة باطن هذا الكلام إنما هو بالتعمق والغوص في معرفة حقيقة وجود السماء والأرض في واقع الحال، إذاً الولوج في باطن الكلام الإلهي ليس موجهاً إلى ذات الله عز وجل وإنما هو موجه إلى أفعاله التي تكلم عنها النص وهي خارجه.

فلذا كان التفكير بالشيء دائماً مرتبطاً بالواقع - آفاق وأنفس - لأنهما السكة التي يمشي عليها العقل، ومن هذا الوجه صح القول الذي يقول: لا تفكروا بذات الله وإنما فكروا بخلقه. وذلك لأن ذات الله عز وجل ليست هي شيئاً بالنسبة للعقل بمعنى أنها لم تتشيأ في العقل فتصبح مادة للدراسة ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ﴾ بخلاف وجوده كخالق مدبر فهذا المفهوم تشيأ في الذهن وأصبح شيئاً قابلاً للدراسة وذلك من خلال الأشياء - المخلوقات - [1].

وقراءة النص الإلهي في الواقع لا يمكن أن تتم إلا بالبعدين معاً الظاهر والباطن وهذه القراءة لا بد لها من أسس تقوم عليها ومن أهمها:

1- أن يكون النص إلهي المصدر. وهذا محصور في نص الكتاب فقط كونه الوحي الذي نزل على الرسول[1]

2- أن يُفهم النص حسب منظومته من النصوص الأخرى، وذلك من خلال عملية ترتيل الآيات ذات الموضوع الواحد وترتيبها حسب منظور علمي.

3- أن يفهم النص حسب النصوص المحكمة.

4- أن يفهم النص حسب أوجه اللسانية العربية لا يخرج عنها.

5- أن يفهم النص بشكل تزاوج بين ظاهره وباطنه.

---

[1]- راجع كتابي الألوهية والحاكمية فصل تفسير [ليس كمثله شيء].

[1] - راجع كتابي تحرير العقل من النقل.

6- أن يفهم النص من خلال إسقاطه على محل تعلقه من الواقع المعني بالنص.

7- أن يفهم النص حسب الأدوات المعرفية لكل مجتمع

8 - أن يفهم النص ضمن منظومة الأحكام الكلية والمقاصد.

وبناء على ما تمَّ طرحه يكون النقاش والحوار في مسألة الظاهر والباطن للنص القرآني قائماً ابتداء على مفهوم الإيمان بمصدرية النص، لأن نفي مصدريته الإلهية ينفي الحاجة لدراسته من منطلق الظاهر والباطن والقراءة المعاصرة له، لأنه يصبح نصاً بشرياً غير ملزم ولا يهمنا أمره سوى من كونه تراثاً لنا.

فيكون المقصد من قوله تعالى:

﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾

أن الله الأحد الصمد عالم بظواهر الأشياء وباطنها والعلاقة بينهما لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وهذا شيء طبيعي لأن الخلق فعله ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ .

وكذلك يشير النص إلى أن لولا الباطن لما وجد الظاهر، والباطن هو الله الخالق المدبر، والظاهر فعله، ومن هذا الوجه كان الظاهر دليلاً على الباطن، والباطن سبباً لوجود الظاهر.

الثابت والمتغير

و

العلاقة الجدلية بينهما

إن مفهوم الثابت والمتغير من المفاهيم المرتبطة بالواقع ارتباط اللازم بالملزوم، وكون الأمر كذلك فدراسته تصبح دراسة موضوعية للواقع المشاهد – آفاق وأنفس – .

إن الواقع كما هو عليه في الحال قائم على الحركة لا يقف أبداً

﴿ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾.

وهذه الحركة لا يمكن أن تكون في واقع الحال إلا إذا كان لها جانب ثابت يكون أساساً للحركة لأن غياب الجانب الثابت عن المتغير يلغي وظيفة الجانب المتغير ودوره ويصبح وجوده عبثاً وليس له دور يقوم به نحو افتراض انتفاء حركة الأرض حول نفسها وحول الشمس وسيرها اللا متناهي في اللا اتجاه غير خاضعة لأي نظام، وإذا كان الأمر كذلك فيعني انتفاء الليل والنهار والفصول الثلاثة وتوقف الوقت لأن كل لحظة لحركة الأرض اللا نظامية هي وقت بحد ذاته قائم بنفسه لا علاقة له بما قبله أو بعده، ولو افترضنا وجود حياة عاقلة على هذه الأرض اللا نظامية في حركتها لكانت هذه الحياة أفقية في الوجود لا علاقة للمجتمعات ببعضها بل بالجيل نفسه تنتفي العلاقة، بل الإنسان الفرد يبقى طوال حياته جاهلاً لا يعلم شيئاً لأن كل ما حوله في تغير مستمر دون ثبات وتواصل!.

إذاً؛ غياب الجانب الثابت في الواقع مع وجود المتغير فقط يؤدي إلى غياب العلم والتواصل ويؤدي إلى الفوضى ليحل في هذا الوجود الهلاك أخيراً والتلاشي إلى لا شيء.

وغياب الجانب المتغير عن الواقع مع وجود الجانب الثابت فقط يؤدي إلى الجمود وجعل الحياة صورة طبق الأصل عن بعضها بعضاً، وإذا حصل هذا في الواقع انتفى عن الواقع صفة النمو والتطور ليحل محله الهلاك والتلاشي إلى لا شيء.

إذاً؛ الجانب الثابت لا بد منه لتحقيق العلم والتواصل، والجانب المتغير لتحقيق التطور والنمو، والعلاقة بين الثابت والمتغير علاقة جدلية يؤثر كل واحد منهما بالآخر بالنسبة لوجوده، فنظام سير المجموعة الشمسية ثابت على متغيرات تنتج منه وذلك متحقق بظهور الليل والنهار والفصول الثلاثة بشكل مستمر، ولو انتفت هذه الظواهر المتغيرة عن الظهور لانتفت صفة الثبات نفسها من حيث هي نظام دائم.

لذا فصفة النظام الثابت تُدرَكُ من خلال الظواهر المتغيرة بشكل دوري، فالثابت ينتج عنه المتغير، والمتغير يدل على الثابت كقوله :

﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلاً ﴾ .

ومن هذا الوجه ظهر لنا علاقة الخالق المدبر بخلقه، فالله أحد صمد وذلك لم يدرك من قبل الناس إلا بوجود الجانب المتغير الذي هو فعل الله عز وجل – الآفاق والأنفس – فالثابت أصل ومرجع للمتغير ولولا

وجـود الثابـت – البـاطن – لمـا وجـد المتغـير – الظـاهر – والمتغـير دليـل على الثابت ولولا المتغير لما ظهر الثابت لنا، هذه هي العلاقة الجدلية بين الثابت (الباطن) و المتغير (الظاهر)، فعلاقة الثابت مع المتغير علاقة وجود فلولاه لما وجدت الحركة والتطور، والمتغير علاقته مع الثابت علاقة ظهور فلولاه لما ظهر لنا الجانب الثابت.

فأي حركة وتطور إنما هي ظاهر لثابت باطن.

علاقة النص الرسالي
مع الواقع المتغير

إن الرسالة الإلهية كونها موجهة إلى المجتمعات الإنسانية قاطبة عبر الزمان والمكان وهي رسالة خاتمة لما قبلها كان من الطبيعي أن تتصف بصفات المجتمع الإنساني نفسه من حيث الثبات والتغير، وتحقق ذلك باختلاف بنية التشريع الاجتماعي للرسالة عن التشريعات السابقة. إذ كانت الرسالات السابقة عينية في تشريعها و زمكانية في توجهها، أما الرسالة الكاملة الجامعة فلقد نزلت ابتداء إنسانية عالمية متجاوزة في خطابها الزمان والمكان لتستوعب كل الأمكنة مع اختلاف المجتمعات وتطورها، وهذا يقتضي أن تكون صفة التشريع صفة حدودية وليست عينية، أي يأتي التشريع ثابتاً كحدود تشريعية غير مرتبط بالزمان والمكان وغير موجه إلى مجتمع معين وليس للتطبيق بعينه وإنما هو خطوط حمراء غير مسموح تجاوزها مع السماح باختيار الحل المناسب للظرف الراهن ضمن هذه الحدود.

فالنص الإلهي مرتبط بالواقع كون الواقع محلاً للنص وسابقاً عنه في الوجود، وبما أن الواقع – آفاق وأنفس – وصل إلى مرحلة الاستقرار على نظام واحد قائم على الثابت والمتغير وانتفت عنه عملية النسخ اقتضى نزول نص جديد يكون مكملاً وجامعاً لما سبق متصفاً بصفات الواقع نفسه من

حيث الثبات والتغير والاستمرار معه بخط واحد، ويكون دور الإنسان مع النص الثابت مثل دوره مع الواقع الثابت تماماً، فالإنسان الذي يكتفي بعرض جسمه تحت أشعة الشمس ليحصل على الدفء هو إنسان اكتفى بالحد الأدنى للتعامل مع الواقع الثابت، أما الإنسان الذي يقوم بدور الخلافة في الأرض ويقوم بتفعيل طاقاته المعرفية من خلال السير في الأرض تفكراً ودراسة فإنه يقوم بعملية إنتاج متغير جديد من الثابت الواقع نحو جعل أشعة الشمس طاقة حرارية وهذه العملية الجعلية المتغيرة كانت ضمن الثابت واستخدامه، ولذلك قلنا إن الثابت ينتج عنه المتغير، والمتغير يدل على الثابت.

وهذه العملية الجعلية المتغيرة هي نفسها نتعامل بها مع النص الإلهي الثابت، فمن يقف على ظاهر النص يكون قد أخذ بالحد الأدنى للتفاعل وبأبسط صوره ويحصل على مجتمع بسيط بدائي غير متطور، أما الذي يقوم بالتفاعل مع النص فإنه يحركه من ثباته الظاهر ويجعله ينتج عنه المتغير الذي يناسب المتغير من الواقع ومن هذا الوجه فالنص الرسالي الثابت مثله مثل الواقع الثابت تماماً من حيث كونهما على متغيرات لا متناهية ومتروك للإنسان الخليفة أن يتفاعل مع هذه المتغيرات ويكتشفها ويسخرها لمصلحته، وكل ذلك ضمن الثوابت في الواقع والنص الإلهي.

إذاً ليست العبرة بمسألة قدم الشرع أو حداثته من حيث الوجود، وإنما العبرة بصلاحية هذا الشرع وملاءمته للطبيعة الإنسانية والاجتماعية، فمن

يستطيع أن يضع تشريعاً حدودياً أحسن مما أنزل الله عز وجل فإنه يفرض تشريعه على الواقع من جراء الأحسنية وتحقيق المنفعة للناس جميعاً.

وكذلك ليست العبرة بالتقيد بالشرع الإلهي الناحية الإيمانية وحسب وإنما المعتمد الذي يفرض نفسه على الناس آمنوا أم لم يؤمنوا إنما هو موافقة هذا الشرع لسنن الفرد والأسرة والمجتمع أثناء حركتهم وتفاعلهم مع بعضهم ومع الآفاق لتحقيق الأمن والسلام البيئي والاجتماعي وتطبيق العدل والإحسان بين الناس جميعاً لينعم الناس بأكبر حظ من السعادة وتحقيق الذات، وبناء على ذلك نجد المجتمعات المعاصرة الجاهلية من حيث الفكر والقيم بعد الدراسة والمعاناة وطول الزمن وانتشار الفساد تصل إلى إيجاد علاج لبعض مشكلاتهم يتوافق مع التشريع الإلهي، ومرد ذلك ليس الأخذ من التشريع الإلهي سراً، وإنما لأن الواقع - آفاق وأنفس - أجبرهم على الوصول إلى هذا الحل كونه متوافقاً ومنسجماً معه، وكون الحل منسجماً مع الآفاق والأنفس فإنه يكون الحكم الشرعي نفسه لأن الواقع والنص كليهما من مصدر واحد والانسجام بينهما ضرورة إيمانية.

فالمجتمعات البشرية إذا استخدمت العلم وأرادت لنفسها الأمن والسلام لتعيش بسعادة على الأرض فإنها سوف تصل إلى الإقرار بصحة وأحقية شرع الله ويصبح الدين والعلم واحداً.

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (فصلت 53).

ولكن المجرمين يمنعون وصول هذه الحقيقة إلى عامة الناس ويقومون بالتعتيم والتشويش عليها وتغطيتها ليستمر استبدادهم في السلطة والثروات واستعباد الناس ثقافة وطاقة ، ويرسخون إن الدين تخلف وإرهاب وإجرام.

﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ (النمل 14).

﴿ وَقَـٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَـٰبِقِينَ ﴾ (العنكبوت 39).

أهم المراجع

1-المصاحف أبو بكر عبد الله بن أبي داوود السجستاني

2-البرهان في علوم القرآن الزركشي

3-الإتقان في علوم القرآن جلال الدين السيوطي

4- المقنع في رسم مصاحف الأمصارأبو عمرو عثمان بن سعيد الداني

5-مصحف القراءات العشرة. محمد فهد خاروف/ مراجعة الشيخ محمد كريم راجح

6-ناسخ القرآن ومنسوخه ابن الجوزي

7-رسم المصحف دراسة لغوية تاريخية غانم قدوري الحمد

8- النبأ العظيم عبد الله دراز

9- القراءات وأثرها في التفسير والأحكام محمد بن عمر بن سالم بازمول

10- تحت راية القرآن مصطفى صادق الرافعي

11-تاريخ آداب العرب مصطفى صادق الرافعي

12- مقاييس اللغة ابن فارس

13-مباحث في علوم القرآن صبحي الصالح

14- دراسة الكتب المقدسة موريس بوكاي

15- الكتاب والقرآن د. محمد شحرور

16- نقد الخطاب الديني د. نصر حامد أبو زيد

17- مفهوم النص د. نصر حامد أبو زيد

18- النص القرآني أمام إشكالية البنية والقراءة د. طيب تيزيني

19- المرأة والدين والأخلاق د . نوال سعداوي د هبة رؤوف عزت

20- القرآن في الإسلام محمد حسين الطبطبائي

21- أصول الفقه محمد رضا المظفر

22- الألوهية والحاكمية دراسة علمية من خلال القرآن الكريم سامر إسلامبولي

23- تحرير العقل من النقل سامر إسلامبولي

وقراءة نقدية لمجموعة من أحاديث البخاري ومسلم

24- الآحاد، الإجماع، النسخ سامر إسلامبولي

25-كيف نتعامل مع القرآن محمد الغزالي

26- مقدمة ابن خلدون ابن خلدون

27-فجر الإسلام أحمد أمين

28- الفتنة الكبرى طه حسين

29- الإسلام والعصر تحديات وآفاق محمد سعيد رمضان البوطي/ د.طيب تيزيني

30-دلائل الإعجاز عبد القاهر الجرجاني

31-الكشاف عن حقائق التنزيل الزمخشري

32- الشيعة والتصحيح د. موسى الموسوي



سامر بن محمد نزار إسلامبولي

ولادة دمشق 1963 سوري الجنسية

ـ باحث ومحاضر في الفكر الإسلامي .

– عضو في اتحاد الكتَّاب العرب منذ عام 2008

مؤلفاته حسب ترتيب ظهورها

1- علم الله وحرية الإنسان ... . دمشق – دار الأهالي / 1994 / م

2- دراسة نقدية لمفاهيم أصولية .... دمشق – دار الحكمة /1995/ م

(الآحاد، الإجماع، النسخ) ....ط 2/ / دار الأوائل /2002/ م

3- الإلوهية والحاكمية ....دمشق دار الأوائل /1998 / م

4- تحرير العقل من النقل ....دمشق دار الأوائل /1998/ م

5 - المرأة (مفاهيم ينبغي أن تصحح)........دمشق دار الأوائل /1998/ م

6- ظاهرة النص القرآني تاريخ ومعاصرة ...دمشق دار الأوائل /2002/ م

(رد على كتاب: النص القرآني أمام إشكالية البنية والقراءة)

7- القرآن بين اللغة والواقع ....دمشق دار الأوائل /2005/ م

تقديم الأستاذ د. سمير إبراهيم حسن .عميد كلية الآداب والعلوم الإنسانية في دمشق.

والأستاذ: د . محمد الحبش . مدير مركز الدراسات الإسلامية في دمشق .

8- دراسة إنسانية في الروح والنفس والتفكير. دار الأوائل، ودار يعرب 2008 م،

تقديم الأستاذ: جودت سعيد، والأستاذ: ندرة اليازجي

9- مفهوم السنة غير الحديث /2008 م

10- غطاء رأس المرأة أو شعرها حكم ذكوري وليس قرآنياً / 2008م

11- القرآن من الهجر إلى التفعيل.الأوائل 2008م

12- علمية اللسان العربي وعالميته. تقديم الدكتور مازن الوعر

13- ميلاد امرأة (قصة نفسية واجتماعية).

14- حوارات ثقافية. ج1-

15- حوارات ثقافية ج2-

16-أفكار فلسفية وفتاوى أزهرية. مجموعة قصص.

17- مفاهيم ثقافية.

18-اليهودية انغلاق فكري وإرهاب اجتماعي.

19 - نبي الإسلام غير نبي المسلمين.

20- مشروع الثقافي الراشدي، ويليه الإرهاب إيدز العصر.

21- أسطورة نزول النبي عيسى أو شبيهه

22- الإلحاد موقف نفسي وليس فكراً

المؤتمرات التي شارك فيها

- مؤتمر حقوق الإنسان الذي أقامته جمعية التجديد الثقافية البحرينية في عام 2010 في البحرين عنوانها: الحريات وحقوق الإنسان.

- ندوة الملتقى الثاني لكُتّاب التنوير الذي بإشراف الدكتور محمد حبش في مركز الدراسات الإسلامية عام 2006

- ألقى محاضرات في المراكز الثقافية

- ألقى محاضرات في صالونات ثقافية في دمشق

مقالاته المنشورة في الدوريات والصحف

- مجلة العالم. تصدر في لندن

- مجلة إسلام 21. تصدر في لندن

- مجلة شباب لك. تصدر في دمشق

- جريدة الأسبوع الأدبي التي تصدر عن اتحاد الكتاب العرب في دمشق

- جريدة الوقت البحرينية.

- جريدة المثقف البحرينية.